جعفر العقيلي

ضيوف ثقال الظلّ

إبداعات عربية

قصص

جعفر العقيلي

ضيوف ثقال الظّل

جعفر العقيلي

- قاص من الأردن.
- بكالوريوس كيمياء – جامعة اليرموك.
- يعمل في الصحافة الثقافية.
- ص.ب (٧١٣٦٨٠) الرمز (١١١٧١) عمّان – الأردن

العنوان الإلكتروني: jaloqaily@yahoo.com

المحتوى

إلى

هيا

وطناً

أخيراً...

أحترف فيه الحريّة

الرّأس والمرآة

الرّأس والمرآة

إنّها رأسي؛

الوجهُ الناحلُ الذي ورثتُهُ عن جدّي لأبي، العينان المغروزتان في أعماقه، الأنف المضغوط الباسط قاعدته فوق أرجاء الوجنتين الضّامرتين، والفم الممتدّ حتى أطراف الأذنين المنكمشتين بعيداً...

بالتأكيد إنّها هي... رأسي التي أعرفها جيّداً؛

الشَّعْرُ المتجعّد بخصلاته المتماوجة كيفما اتّفق، الجبهة المفلطحة التي تضيق عند حدود الحاجبين، والندبة السوداء التي تزيّن حنطةَ خدّي الأيسر.

نعم، لا أشكُّ في مقدرتي على معرفتي -أقصد معرفة رأسي-، فما زلتُ أذكرُها تماماً بكامل بُؤْسِها الذي رأيتُها فيه آخر مرّة...

هل مِن أحدٍ منكم غابت تفاصيلُ رأسِه عن ذهنِه يوماً ما؟ هل سمعتم بشخصٍ ينسى ملامحَهُ؟ حتّى أولئك الكبار الموغلون في السنوات يَذكرُونَ وجوهَهم العتيقةَ التي لا تفتأُ تَشي بتاريخٍ فائضٍ بالأحداث والصُّوَر والتفاصيل الكبيرة، والصغيرة أيضاً.

إنّها رأسي.

بدا الأمرُ غريباً إلى الحدّ الذي لا يُمْكنُني فيه أن أستوعبَه.

صباحَ أمسِ رأيتُها في مواجهتي، تُطِلُّ عليَّ من فضاء مرآةِ الحمّامِ الدائرية ذات الإطار البلاستيكي المُزَركش. تمعّنْتُ فيها -كعادتي- ورفعتُ حاجبَيَّ عدّة مرّات. شذّبتُ ما شذّ من شَعْرِهما. سبَّلْتُ جفنَيَّ؛ دُكْونَةٌ ما تُلَوِّنُهما. إنّه الأرقُ كما قيلَ لي. ابتسمتُ، فابتسمتْ. أعني ابتسمَ الذي يقابلني. أزحتُ رأسي إلى اليمين، ففعلَ هذا البغيضُ مثلي.. وحين عبستُ في وجهِه، لم يتوانَ عن العبوس في وجهي بكثيرٍ من الشّماتة. حينها راودتني رغبتي القديمة المتجدّدة في خداع المرآة وخداعه. الرغبة التي لا أذكر دوافعها وبداياتها الأولى بالضبط، ولكن على الأرجح أنّ ذلك كان قبل ثلاثين عاماً ونيِّف.. وما زالت رغبتي

عصيّةً على التحقّق.

مددتُ لساني، ثُمَّ أعدتُهُ إلى فمي بلمْحِ البصر، آملاً أن أُغافلَ قريني، وتوقّعْتُ أنْ لا يفطنَ لحركتي هذه، لكنّه كرّرَها بحذافيرها. بَصقتُ في وجههِ حَنَقاً، فَرَدّ الصّاعَ صاعَين، حتّى شعرتُ أنّ وجهي امتلأ بالبُصاق.

كم أكره هذا النّدّ الذي لم أحمل أُلفةً تجاههُ منذ معرفتي به.

المهمُّ، لقد وجدتّني في مواجهة رأسي. إنّها فكرة فانتازية، كانت تقودني كلما أمعنت فيها إلى الجنون؛ أيْ أنْ أرى رأسي معروضةً للبيع في حانوتٍ قديم. رأسي التي أستطيعُ تمييزها من بين ملايين الرؤوس، تنتظرُ من يشتريها. حقّاً يا لها من "مَسْخَرَة".

تذكّرتُ المرآةَ التي كم تمنّيتُ أن أنسحبَ من محيطها تاركاً صُورتي فيها. كم حاولتُ أنْ أمضي بينما رأسي محاصَرَةٌ بإطارها البلاستيكي، ولكن...

عندما لاحَ لي هذا الخاطرُ وجدتّني أكثرَ تقبُّلاً لِمَا يدور حولي؛ فما الفرقُ بين أن أتركَ رأسي في المرآة، وبين أنْ تُزيِّنَ واجهةَ حانوتٍ قديمٍ يكتظّ بالتُّحَفِ والآثار. "الأمرُ سيّان"، هكذا قُلتُ لي، وقد قرّرتُ متابعةَ مشواري الذي خرجتُ لأجلِه. ولكنّني تراجعتُ. تفرّستُ

في رأسي مرّة أخرى. كانت مُجْتزأةٌ من أسفل العنق كرأسِ امبراطورٍ رومانيّ عظيم. المدهِشُ أنّها بَدَتْ بملامح صامتة، فالفمُ يتّخذُ خطّاً مستقيماً إلاّ من انحناءةٍ بسيطةٍ عند طرفيه، والعينان تُحَمْلقان في حياديّة وكأنّني لستُ بِصَاحِبِهِمَا.

وفجأة، تبادر إلى ذهني سؤالٌ: كيف -إذن- وصلتُ إلى هذا المكان دون رأسٍ؟ فمن غير المعقول أن يحدثَ هذا. كان صباحاً طبيعياً، ألقيتُ فيه التّحيّةَ على "أبو العبد" و"سعيد" والآخرين في الحارة، وكلُّهُمْ ردُّوا بأحسنَ منها. لو كنتُ مبتورَ الرأس هل كانوا سيفعلون ذلك؟ ثمّ إنّه من المستحيل أنْ أحادثَهُم بلا لساني. بل، ولقد رأيتهم بأمّ عيني، فهل كنتُ حقاً بلا عينين؟ تنبّهتُ إلى أنّ بإمكاني التأكّد من ذلك بسهولة. رفعتُ يدي إلى رأسي فوق عنقي أتلمّسُهَا، فَوَجَدتُها تتربّع على عرشِ عنقي. تنفّستُ الصّعداء، وابتسمتُ بلهفةٍ مُرَدِّداً: "إذا كان الأمرُ كذلك، فلماذا القلق؟".

لكنّني كنت أقفُ أمام رأسي، وأجزمُ إنْ كان ثمّة رأسٌ تشبهها (في هذه المدينة على الأقل) إلى هذا الحدّ -أعني حدّ المطابقة-. كما أنّها من لحمٍ ودم، فالتّغضُّناتُ التي تكسو ملامحَها حقيقيّةٌ، ورموشُها تتحرّك جيئةً وذهاباً كما لو كانت حيّةً، رغم الصّمت الذي يتغلغلُ في قَسَماتِها.

الفرقُ أن رأسي فوق عنقي، بينما الرأسُ الأُخرى كانت تَرْتكِزُ فوق قاعدةٍ

مخمليّة خمريّة اللّونِ تُضْفي عليها هالةً من القداسة.

أيّ مُصيبة تلك التي أنا فيها

لِمَ لا أقطع الأمرَ من دابرِه، وأستفسرُ من صاحب الحانوت عنها؟".

تذكّرْتُ مرآتي التي رشقتُها مساء الأمس بالصّابونة فكسرتُها، لأنّها لم تَرُقْ لي حين رمقتُها من بعيد، لذا لم أمارس هوايتي عليها هذا الصّباح. في الحقيقةِ تقاعستُ عن شراءِ مرآةٍ جديدة، فثَباتُ ملامحي منذ سنين لم يُشجّعني على التفكير في أنّها ستتغيّر هكذا فجأة، حتّى أنني غسلتُ وجهي وحلَقْتُ لحيتي اعتماداً على ذاكرتي وحفظي لشكلي فقط.

تمنّيْتُ أنْ أحطِّمَ الزّجاج الذي يفصلني عن رأسي مثلما فعلتُ أمس بالمرآة، غير أنّي ما لبثتُ أن استَسْخَفْتُ الفكرة، فقرّرتُ أخيراً أن أدخلَ الحانوتَ –كأيِّ زبونٍ آخر– وأسألَ عن ثمنها، فربّما أشتريها، وربّما – حين ألمسُهَا– تألَفُني، أو تتذكّرني، فأستردُّني دون عناء.

ولكنّني سرعان ما شعرتُ بالخيبةِ عندما انعطفتُ نحو البابِ عند الطَّرَف الآخَر فوجَدْتُهُ مُغلقاً. أجلتُ نظري بحثاً عن أحدٍ في الدّاخل، فلم يكُنْ غير السّكون يلفُّ أرجاء المكان. الْتفَتُّ إلى رَجُلٍ كان يقف أمام بقالة يفصلها عن الحانوت عدّة أمتار، بدا من نظراته المُصَوَّبة تجاهي وكأنّه يتتبَّعني منذ زمن. حيّيْتُهُ، فتلعثمَ وارتبكَ، فارْتَبكتُ مثْلَهُ، وقبل أنْ أتفوّهَ بِحَرْفٍ بادرني بنبرةٍ مُتحَسِّرَةٍ وهو يمضي بعيداً: "مسكين... عاشَ

غريباً، وماتَ غريباً، لَمْ يترك وريثاً ليفتحَ أبوابَ الحلّ بعده... دُنيا!".

صعقتني كلماتُهُ التي رشقتني كالرّصاص، وأصابتني بالكآبة. وبعد طُولِ وُجُوم، اشتريتُ مرآةً دائريةً صغيرةً من دكان مجاور، ووضَعتُهَا في جيب سُتْرتي. وحين انْزَويتُ عن الأنظار قليلاً، أخرجتُها، وبَحَثتُ عنّي فيها، بَحثتُ جيّداً، فَلَمْ أجِدْني. لم أجِدْ رأسي. مَدَدتُ يدي مرّة أخرى أتحسّسُ تضاريسَها، فأدهشني استقرارُها فوق عنقي.

هَروَلتُ إلى بيتي مُتأرجحاً كبندول، ودوارٌ عنيفٌ يُبَعْثِرُني على الطُّرُقات والأرصفة، ويُحيلُني إلى كُتلةٍ من فوضى. وعند مدخل الحارة، ألقيتُ التّحيةَ على "أبو العبد" و"سعيد" والآخرين، وردُّوا بأحسن منها...

كُلُّهُمْ عَرَفُوني، إلاّ أنا، إذْ -يا للعجب- لَمْ أعُدْ أعْرِفُني.

١٩٩٨

١٩

ضيوف ثِقَال الظِّلّ

ضيوف ثِقال الظّلّ

رغم النتائج، كان الأمرُ يتطلّب قراراً جريئاً كهذا، فما عدتُ أحتمِلُ الفوضى في أركان حياتي التي أسعى أن تكونَ دائماً في أقصى حالات ترتيـــبها.

كان لا بُدَّ أن أتخلّصَ من أولئك الكثيرين الذين عَرفتُهم، وأطرُدُهُم من بين أوراقي التي يسكنونها رغماً عنّي منذ سنين؛ أكنُسُ ذاكرتي من بقايا أسمائهم، وملامحهم، وألقابهم، وأرقام هواتفهم، لأُعيدَ تأثيثَها من جديد، كما أحبُّ وأشتهي، بعد أنْ خلقَ وجودُهم في داخلي زحاماً لا يُطاق.

قبل أعوامٍ أربعة من الآن، لم تكن ثمّة مشكلة من هذا النوع في حياتي. فأصدقائي الذين لم يتجاوز عَدَدُهم أصابعَ اليدين مجتمعةً، كانوا من أبناء قريتي —تصوّروا! كان لديّ أصدقاءٌ حقيقيّون– وكُنّا نلتقي بعد الغروب دون مواعيد مُسبقة. وحين يغيبُ أحَدُهم، فَمِن اليسير الوصولُ إليه، إذْ لا تحتاجُ المسافةُ بين بيتي وبيتِ أبْعَدِهِمْ عنّي من الزّمن سوى خمس دقائق، ولذا لم أكُنْ مضطرّاً إلى حَمْلِ أرقام هواتفهم، أو حفظها، أو تذكُّرِها، إن كان لديهم هواتف أصلاً!

بعد ذلك، انْخَرَطتُ في وسطٍ مختلفٍ -بِحُكمِ العمل- ليس فيه من بساطةِ القرية شيءٌ. وسطٌ مليءٌ بالعلاقات الرديئة، والمجاملات التي احْتَجْتُ كثيراً من الوقت، في بادئ الأمر، حتّى تفهَّمْتُهَا. فكان أبرزُ استحقاقاتِهِ عَلَيّ أنّني صرتُ أحملُ في جيبي دفتراً صغيراً، أُدَوِّنُ فيه الملاحظات اليوميّة الطارئة، ومن ضمنها أرقام هواتف الأشخاص الذين تعرّفتُ إليهم في ظروفٍ مختلفة، ولأسباب متعدّدة؛ منهم من أصبح صديقاً لي فيما بعد، ومنهم من ارتبطتُ معه بعملٍ آنيٍّ أو دائم، ومنهم من أجبرني على تسجيل رقمه كي أُهاتِفَهُ لاحقاً، مع علمه أنّني -على الأرجح- لن أفعلَ ذلك، وثمّة أرقامُ هواتفَ لآخرين لم أتّصل بهم البتّة، رغم الجهد الذي بذلتُهُ في الحصول عليها من غيرهم لِدَوَاعٍ لم أعُدْ أذكُرُها الآن.

لكنّ الدّفترَ امتلأ بالأسماء والأرقام والملاحظات في فترة قياسيّة،

وبَدوتُ كما لو أنّني أمتهِنُ "العلاقات العامّة"، ممّا دعاني إلى التفكير في تجديده، فقرّرتُ تخصيصَ دفترٍ للملاحظات، وآخر لأرقام الهواتف، سرعانَ ما ضاقَ بدائرة معارفي التي كانت تتوسّع كالنّار في الهشيم، فاشْتَرَيتُ دفتراً ثالثاً. وتكرّرت هذه العملية لاحقاً، حتّى اكتشفتُ أنّني أقتني في جيوبي سبعةَ دفاترَ محشُوّةً بالحروف والأرقام، ما من أحد رآها أو اطّلعَ عليها إلاّ واعتقدَ أنّني رجلٌ مُهِمٌّ، مليءٌ بالمشاريع، وأُنّ لي إمبراطوريةً من الأصدقاء.

ولأنّ الدفاترَ أصبحت تعيقُ حركةَ يدي كلّما مدَدْتُهَا إلى إحدى جيوبي، فقد آثرتُ نقلها مجتمعَةً إلى الدُرْجِ الأخير من طاولة مكتبي، أعودُ إليها بين الحين والآخر باحثاً عن رقم هاتف أحتاجُهُ من بينها، رغم ما يستوجِبُهُ ذلك من قضاء وقتٍ طويلٍ في التنقيب الذي يزيد من صعوبتهِ تلك الأرقام التي لم أُسَجّل إزاءَها سوى المقطع الأوّل من أسماء أصحابها، غافلاً عن كتابة أسماء عائلاتهم، فَضلاً عن الأرقام الأخرى التي كنتُ أُعَنْوِنُ مقابلها على رموزٍ وإشارات مختلفة، أغلبُ الظَّنّ أنّني كنتُ أهدفُ من تدوينها بهذا الشّكل ألاّ يتعرّف إليها أحدٌ غيري.

وحدثَ مرّةً أنْ حاولتُ إحصاءَ عَدَدِ الذين تزدحمُ بهم أرْوِقَةُ دفاتري، لكنّني تراجعتُ، مُبَيِّتاً في نيّتي أن أقتنيَ دليلَ هاتف وطنيّاً، يُريحني من علاقتي الشّائكة بالدفاتر، ثمّ أقلعتُ عن هذه الفكرة،

عندما علمتُ أن طبعةَ الدّليل المتوفّرة في السوق قديمةٌ، ولا تفي بالغرض.

هذا ما دعاني إلى اتّخاذِ قرارٍ من نوعٍ مختلفٍ، أُخفِّفُ فيه من وطأةِ شعوري بهذا الحضور الطّاغي للآخرين في حياتي، غيرَ آبهٍ بما قد ينتج عن ذلك من عواقبَ لم أُخمّنْها، أو أحسبْ لها حساباً. ذلك أنّي كنتُ كلّما لجأتُ إلى الدفاتر أنبُشُ فيها بحثاً عن رقمِ شخصٍ لأهاتفه –مغلوباً على أمري– أضطرُّ إلى قراءة كلّ أسماء الأشخاص الآخرين، لعدم ترتيب الأسماء ألفبائياً أو أبجديّاً، وكلّما مَرّ من أمام ناظري اسمٌ ما، استوقفني برهةً، وأوقعني في شَرَكِ الماضي اللعين. الماضي الذي كَمْ أقنعتُ نفسي أنّي تجاوزتُهُ، وإلى الأبد، لكنّني سرعان ما كنتُ أنقادُ إليه قَسراً، وعلى غفلة منّي، كلّما عَنّ لَهُ ذلك.

فيما بعد، أصبحتُ أشعرُ وكأنّني عبرَ هذه الدّفاتر، أستحضرُ أرواحَ الغائبين عني والمغيّبين، فيَمُرُّون في ذاكرتي، واحداً واحداً، بتفاصيل ودون تفاصيل. أُجهدُ نفسي في تذكُّرِ معظمهم جيّداً، أو نسيانهم تماماً، لكنّهم يأبون، ويظلّون مُعلّقين بينَ بين، خصوصاً أولئك الذين لم أعُدْ قادراً على الاهتداء إلى ملامحهم بوضوح، لتبقى علاقتي بالأسماء فقط، في غياب أصحابها. علاقةٌ باردةٌ، جافّةٌ، محايدةٌ، تُصيبُني بصداعٍ حادٍّ، لا يزول إلاّ بإغلاقي الدفاتر، ودَفْنِها بين أوراقي هرباً من عالمها "السُّفلي".

لأعترف أنّ حالةً من الكآبةِ بدأتْ تُعكّرُ صَفْوي، وخليطاً من الخوف والقلق صار ينتابُني، كلّما أجبَرَتني الظروفُ على الاقتراب من الدّفاتر أو استعمالها. فَمُجَرَّدُ التفكيرِ في أنّ أشخاصاً بهذه الكثرة يعيشون معي -جميعاً- تحت سقفٍ واحد، وينتظرون أن أفتحَ البابَ بحثاً عن أحدهم لينتشروا في أرجاء محيطي، أصبحَ أمراً مزعِجاً، يدعو إلى الغثيان، خصوصاً أنّهم في معظمهم لا يعرف بعضُهُم بعضاً. بلْ حتّى أنّهم يختلفون -من النّقيضِ إلى النّقيضِ- في الأمْزِجَةِ والرّغبات والنّوايا والأعمار، وكلّ ما يجعلهم يجتمعون في مقبرةٍ واحدة هو حفّارُ القبور، أقصدُ أنا. فلولا معرفتي بهم أجمعين، ومعرفتهم بي، ما كانوا التقوا، بهذه الفوضى، بين دفاتري التي بدا الدُّرجُ الذي يُخفيها وكأنّه قمقمٌ يحبسُ خلف بابِه قبيلةً من العفاريت.

تَخيّلْتُ المشهدَ: لو أنّ صبايا المدينة اللّواتي كذبتُ عليهنّ طيلةَ معرفتي بهنّ، فادّعيتُ لِكُلِّ واحدةٍ أنّي لا أعرفُ سِواها، يَلْتَقِينَ هُنا، كما تلتقي أسماؤهنّ وأرقامُهُنّ في حضرتي، ليكْتَشِفْنَ مقدارَ خيانتي وخداعي الذي حكْتُهُ جيّداً.

خلاصةُ الأمرِ، أنّي سئمتُ هؤلاء السّاكنين غير المرغوب بهم. وصار حلمي أنْ أعودَ كسابقِ عهدي في القرية، حيث قلّةٌ من الأصدقاء الحقيقيّين. ولهذا أؤكّدُ للمرّة الأخيرة: كان الأمرُ

يتطلّبُ قراراً جريئاً كالذي اتّخذتهُ، لأتخلّصَ من الضّيوف ثقالِ الظِّلِّ الذين سكنوا أوراقي أربعة أعوام، وأرهقوني في دعوهم حياتي من دون استئذان، والتّطفّلِ عَلَيَّ كلّما سَنَحَتْ لهم الفرصةُ ذلك.

جمعتُ الدّفاترَ السّبعة. لم أشأْ أن أُقلّبَ صفحاتها لأُوَدّعَها الوداعَ الأخير. ينبغي أن أُقْصيها بِمَنْ فيها عن حياتي. سأُعيدُ ترتيبَ ذاكرتي كما أشتهي، بعيداً عن تأثيرها. ستَتِمُّ مراسِمُ دَفْنِهَا دونَ صَخَب، دون موسيقى، أو إطلاق إحدى وعشرين طلقة من المدفعيّة. ستكونُ مذبحةً بشريةً بلا شَكّ. لكنّني كنتُ قد حسمتُ أمري، ولم يَعُدْ هناك متّسعٌ للتّراجُعِ أو التّفكير، فقد عقدتُ العزمَ على أن لا أندمَ، أو أشعُرَ بأسفٍ أو تأنيبِ ضمير، وقَضيتُ على ذلك الصّوت الذي كان يتململُ في داخلي يُطالِبُني بالوفاء، ويذكّرُني بأنّني -بفعلتي هذه- إنّما أقتلُ أصدقائي.

أغمضتُ عينَيّ، وألْقَيْتُ الدّفاترَ بالنّار، بلا رأفة، بعد أن تماسَكْتُ جيّداً كيلا ترتجف أصابعي النّاحلة. فَعَلْتُ ذلك تماماً، كما كان سيفعلُهُ (روبوت) لو أُمِرَ بذلك، وإذْ بدخانٍ كثيفٍ شبيه بالذي رأيْتُهُ يخرج من مصباح علاء الدين في أحَدِ أفلامِ الرّسوم المتحرّكة ينبعثُ، ويتوَزّعُ في فضاء الغرفة مُكَوّناً شكلاً أرعَبني، ثمّ يواصلُ امتدادَهُ عبر الباب إلى باقي أرجاء البيت.

تراجعتُ إلى الوراء لأتبيَّنَ ملامحَهُ التي بدأتْ بالاتضاح، فشاهدتُ بأُمّ عيني أشخاصاً أعْرِفُهُم، وآخرين لا أعرِفُهُم، وأولئك الذين لا أذكر أين ومتى وكيف التقَيْتُهُم. شاهدتُهُم جميعاً يتناسلون من الدّخان، ويحيطون بي، يحاصرونَني بأجسامهم الضّبابيّة القاتمة، من دون رحمةٍ بي، أو شفقةٍ عَلَيّ.

أذكُرُ فيما أذكرُ أنّ المكانَ كان يضيقُ عَلَيَّ، وأنّي كنتُ أحاولُ اختراقَ الجدار الذي اصطَدَمَ به ظهري، أثناء هروبي من الضَّرَبات التي كانت تتلاحقُ، فوق كلّ شِبْرٍ من جسدي، بينما قهقهاتٌ شامِتَة ومشبوهة، بالتّدريج، تعلو، وتعلو، وتعلو.

٢٠٠٠

هزائمُ صغيرة...
هزائمُ كبيرة

هزائمُ صغيرة... هزائمُ كبيرة

١

كَكُلِّ مساء، يتَّجهُونَ إلى اليمين، ويدخُلونَ الزّقاقَ المُعتمَ، بينما تقودُكَ خُطواتُكَ نحو "اليسار"، ثمّ تلتقونَ آخر اللّيل في البيتِ نفسهِ.

يُحَدِّثُونَكَ عَمَّا يَجِدُونهُ مِن دفءٍ، وقد عادوا مُنهكين، وفي الغالبِ يتهامسُون فيما بينهم، مُحاولينَ إثارة شهيّتكَ. تصطَنِعُ الانشغالَ عنهم، وتَنكبُّ على الكتابِ الرّاقد بين يديك. يَضحَكُونَ قليلاً –وَرُبَّما كثيراً– بِمَكرٍ، وينامون، ولا تنام.

٢

ضَجَرٌ شاسعٌ يجتاحُكَ، وكآبةٌ أيضاً. لا تَهمُّكَ عادَةُ –على غيرِ عادَتِها–، ولا تَهمُّها. هذا الصّباح أشحتَ بوجهكَ عنها، فَصَرَخَتْ مُتَوَسِّلَةً: "ليسَ ذنبي أنَّ عَمَلَ أبي يَتطلّبُ منهُ ذلك".

تَرَكْتَها، أَلْقَيتَ سيجارتكَ على الرّصيف، ومَضَيْتَ خارِجاً من الحَرَمِ الجامعيّ.

تجتازُ ميدانَ جمال عبد الناصر، صوبَ شارع الاستقلال. تتأمّلُ (الآرمات) المُلَوَّنة على جانبَيه: مطعم الحُرّيّة، مكتبة "جيفارا"، سوبر ماركت النَّصْر، مخيطة الثَّورَة. تتساءلُ عن سِرِّ شَغَفِ النّاس بهذه الأسماء والشّعارات وقد حَنّطَها التّاريخُ، وفرّغها من أرواحِها، وتُفكِّرُ في الكتابةِ عن هذه الظّاهرةِ "المُزْمِنَة" التي تَفَشَّتْ في الآونة الأخيرة أكثر من أيِّ وقتٍ مضَى.

يقودُكَ لاوعيُكَ إلى حَيٍّ شَعبيٍّ ينْزوي في قاع المدينة، لم تطَأْهُ قَدَماكَ مِنْ قَبْل. تتذكّرُ هنا مَقُولَةَ أحَدِ الرِّفَاق: "إذا أرَدْتَ أن تتعرّفَ إلى الحياةِ على أُصُولِها، فَزُرْ حَيّاً شَعبيّاً على هامشِ المدينة".

تَتَوَغَّلُ في طُرُقاتهِ الضَّيِّقَة، وأزقَّتِهِ المُلتوِيَة. تُلاطفُ الأطفالَ الّذين يَسدُّونَ منافذَهُ، وتتمنّى لو تعود طفلاً لم يتورّطْ بَعْدُ في لعبة "الكبار".

٣

البيت.

تُحيطُكَ العتمةُ.

تُشعلُ الضَّوءَ، تَتركُ البابَ مفتوحاً، وتُلقي بِحَقيبَتِكَ على المقعد القريب.

تَدخُلُ الحَمَّام، تبتَسِمُ قليلاً وأنتَ تقرأُ على بابِهِ: (الكونغرس). تُتمتمُ مبتسماً: "اللّعْنَة عليهم! لقد حَوّلوا البيتَ إلى صندوقٍ من الطّرائف؛ المطبخُ مكتبٌ سياسيٌّ، وغرفةُ النَّوْمِ مقرٌّ (الكَوْلَسات)، والشُّرْفَةُ مَرْكَزٌ للمُراقَبَة".

تَخْرُجُ مِن الحَمَّام. تَضْغَطُ زِرَّ المذياع: "...وأكّدَ رئيسُ الوفدِ أنّنا لن نُوَقِّعَ قبل الحصولِ على حقوقِنَا بكاملِها...". تخلعُ حذاءَكَ. تتثاءبُ بقَرَف. ترتديه مرّةً أخرى، وقد قرَّرتَ الخروجَ رغم النّعاس الذي بَدَأَ يُداهِمُكَ.

٤

"لنقلب المعادلَةَ. ماذا لو كنتَ مكانَ أبيها؟".

رمى سؤالَهُ في وجهكَ. نَظَرتَ إلى الأرضِ -حيث قَدَماك- صامتاً. نَفَثْتَ عقْبَ السّيجارة من بين أصابعك بحياديّة، وقَضَيتَ على أنفاسِها الأخيرة.

كَرَّرَ السّؤالَ: "ماذا لو كنتَ مكانَهُ، جاوبني؟".

"سأرْفُضُ حتْماً. لن أقْبَلَ المُساوَمَةَ على أيَّةِ حال" قُلْتَ.

رَدَّ هيثمُ: "وهل بِوُسْعِهِ الرَّفْضُ؟ إنّه مجرَّد لاعبٍ صغيرٍ في لعبةٍ أكبر منْهُ ومنْكَ ومنّي".

قاطَعْتَهُ مُسْتَنْكِراً: "فيُفاوِض بهذا الشَّكْلِ المُهين، ويبيع الوطنَ في مزادٍ علنيّ؟".

صَرَخَ هيثمُ: "ليس له دَخْلٌ، ولا ذَنْبَ لِعَادَةَ. هو عَبْدٌ مأمورٌ لا أكثر. مهمَّتُهُ أن يَبْصُمَ فقط...!!".

تَمَلْمَلْتَ بِحسْرَةٍ وأنت تقول: "ألَمْ يَكُنْ بمقدورِهم البحثُ عن إبهامٍ غير إبهامه؟".

٥

المساءُ كذلك.

"السّجائر وطني الأخير" قُلْتَ لها ذات حُبٍّ، عندما حاولتْ منعَكَ عن التّدخين.

سألَتْكَ: "وأنا...؟!".

اقْتَرَبْتَ منها، وقَرَصْتَ خدَّها بفكاهة: "أنتِ وطني الأوّل". فألْقَتْ برأسِها على كتفِكَ، وتعانَقَتْ كفّاكُما.

تَمْنَحُكَ رائحةُ التّبغِ القُدرَةَ على الحياة، بينما يعيشُ رفاقُكَ على رائحة نساء اللّيل.

يدخُلون الشّقّةَ في صَخَبٍ، يقْتَحِمون عالَمَكَ الذي نَسَجَتْهُ حلقات الدّخان، يُبَدِّدونَهُ، ويُحاصِرونَكَ. غادةُ حاصَرَتْكَ أيضاً. أخبارُ الهزائم في المذياعِ تُحاصِرُكَ. وأنتَ... تُحاصِرُكَ.

يحضّرون عشاءً سريعاً. تُشارِكُهُم، وتمضَغُ طعاماً بلا ذائقة، ثمّ تخرجون. عند مفترقِ الطُّرُقِ يتوقّفون قليلاً. يَسْتَدْرِجُونَكَ لِتُشارِكَهُم انْبِساطَهُم اللّيْليّ. يقول أمجد: "يوجد صَبِيَّة مُثَقَّفَة على ذوقك. جَرِّبْ وسَتُعْجِبُكَ".

يضيف طارق: "لن تَسْتَمِرَّ طويلاً إنْ ظَلَلْتَ تحمِلُ السُّلَّمَ بالعرض".

يُزْعِجُكَ تَهَكُّمُهُمْ. ترمي بالسّيجارةِ التي تحترقُ بين أصابِعِكَ أرضاً، تَطْحَنُهَا بحذائِكَ، وتُديرُ لهم ظَهْرَكَ مُتَّجِهاً إلى اليسار، فيما أصواتُهُم وضحكاتُهُمْ تُلاحِقُ خطواتك المُنْكَسِرَة.

٦

تبدو مُخْتلفَةً هذا الصّباح، وعَصِيَّةً على الفَهْم، حين تُحاوِلُ إقناعَكَ بِشَرْعِيَّةِ ما يفعلُهُ أبوها، مُتَحَدِّثَةً عنْهُ كما لو أنّهُ بَطَلٌ.

تَنْسَحِبُ بِعَجَلٍ باحثاً عن زاوية تستفرغُ فيها، وهيَ لَمْ تُكمِلْ بَعْدُ حديثَها الأُحاديَّ معك. تَحْتَجُّ، وتُطالِبُكَ بفُرْصَةٍ أخيرة لِتَشْرَحَ لكَ، ثمّ تصرخ خلْفَكَ برَجاء: "أنْتَظِرُكَ مساءً في الكافتيريا".

كالعادة، تُعيدُ قراءةَ (الآرمات) المُتناثِرَة على الأرْصِفَة والطُّرُقات. "لا شيء تغيّرَ إلاّ عادة".

مرّةً سألَكَ هيثمُ: "لماذا أحْبَبْتَها؟".

قُلْتَ: "لأنها منذُ لقائنا الأوّل لم تَتَغيَّرْ".

ها هِيَ تَخْذُلُكَ الآن، وتَتَغيَّرُ. فهل كنتَ تتوقّع منها سوى ذلك، ما دام الأمْرُ يَتَعلَّقُ بأبيها؟

وتَعُودُ، وقد استْولى عليكَ التَّعَبُ، إلى البيتِ. تُسْرِفُ في التّدخين، وفي التّفكير. ما أشْبَهَكَ بِبوصْلَةٍ فَقَدَت اتّجاهَها فجأة، فواصلتْ دورانَها حول نفسها حدّ الضّياع.

إنّهُ حَدَثُ السّاعَة. مؤتَمَرٌ صحفِيٌّ لأبيها، يستَعْرِضُ فيه مَخزُونَهُ اللّغويّ الهائل. "حقّاً ما أوسَع براري هذه اللّغة، وما أضْيَق الممرّات نحو الحقيقة".

تتذكَّرُ قولَ هيثم: "أنتَ غير مَعْنِيٍّ بِكُلِّ هذه الهزائم والانكسارات. أنتَ لستَ سبَبَها".

صرختَ في وجهِهِ حينئذٍ: "يعني حُطْ راسَكْ بين الرُّوس"، فأكملَ هازًّا رأسَهُ مُسْتَسْلِماً لِمَا خلصتَ إليه بإقرارٍ أقرب إلى الأسف: "وقُولْ يا قَطَّاع الرُّوس".

تخرجُ في العتمةِ. كَمْ أنتَ وحيدٌ، وكَم العتمةُ جديرةٌ بِمَنْ هُمْ مثلك.

٨

تلتقيان عند بابِ الجامعة. تُعَاتِبُكَ: "أين كنتَ مساءَ أمس؟".

تُجيبُها بسخرية: "أُتابِعُ أخبارَ انتصارات أبيك".

تَسْتَعْطِفُكَ قائلةً: "أرجوكَ لا أُحبُّ هذا الأسلوب". تَنْتَظِرُ منكَ رَدًّا، فَتَتَهرَّبُ منها، مُتَعَلِّلاً بتأخُّرِكَ عن المحاضرة، وتترُكُها مُتأفِّفَةً.

ظُهراً.. تذهبُ إلى قاعةِ الشّطرنج. تلعبُ وَحْدَكَ، وتَنْتَصِرُ عليكَ..

وعندما حان المساءُ، كُنْتَ تُلْقِي هيكَلَكَ على السّرير في غرفَتِكَ البعيدة. ليستْ لديكَ رغبةٌ في فعلِ شيء، وربّما ليستْ لديكَ القدرةُ على فعلِ شيء.

يدخُلُ الرّفاقُ. يَتَهَكّمُونَ كعادَتِهِمْ على ما يدورُ في المحيط من

أحداث، فتُذَكِّرهم بالمبادئ، وتُحدِّثهم عن جبهة الرّفض بِحَماسِكَ الزائد.

يقولُ أحدُ بلامُبالاتهِ المُقيتَة: "بَلا مبادئ... بلا بَطّيخ".

تتجادلان، ثمّ تخرجُ معهم. وعندَ مُفتَرَقِ الطُّرُق، لا يجرؤون على دَعْوَتِكَ لِتُشارِكَهُم سَهْرَتَهُم.

تُكْمِل مسيرَكَ اللّيْليّ نحو اليسار. تصعدُ درجات المقهى إلى حيث يَنْتَظِرُكَ مقعَدُكَ المُتَرَبّعُ فوق زاويةِ الشُّرفَةِ المُطلّة على الشّارع. تَرْتَمي فوقَهُ. تُحْرِقُ السّجائرَ، الواحدة تلو الأخرى، وتراقِبُ ازدحامَ الوجوهِ فوق الأرْصِفَة، وازدحامَ المَشاهِد في ذاكِرَتِكَ. يُؤلِمُكَ أن تُصْبِحَ غادَةُ أكثر نأياً، وأن يُصْبِحَ هذا الوطنُ مَنْفى.

٩

إجازةٌ مفاجئة لثلاثة أيّام ابْتِهاجاً بتوقيعِ المُعاهَدَة. تبحثُ عن البَهْجَةِ في وجوهِ الّذين تَعْرِفُهُمْ، فلا تَجِدها، ولا تَراها في وجوهِ الّذين لا تَعْرِفُهُمْ أيضاً.

الرّفاقُ، يذهبونَ إلى قُراهُم البعيدةِ، لِيَنْعَمُوا بالإجازة بين أهليهم، وتَظَلُّ هنا... "تَتَسَكّعُ" في الشّوارع غريباً. تَتَذَكَّرُ المَوْعِدَ الذي ضَرَبَتْهُ لَكَ غادَةُ للمرّة الثّانية. تَنْتَظِرُها، وضجيجُ الكلماتِ التي ستقولُها لها

يُربكُكَ، لكنّها لا تأتي. تُهاتِفكَ مُتأخّرةً، وتعتذرُ عن عدَمِ مجيئِها، بحُجّةِ عَوْدَةِ أبيها من السَّفَر.

تهربُ إلى السّجائرِ أيْضاً، وتعودُ يتيماً إلى سريركَ البارد. تتأمّلُ قسماتِ وجْهِكَ في المرآة الشّاحِبَة؛ كأنّكَ تذبُلُ سريعاً. تنتفِضُ واقفاً، ترتدي السُّتْرَةَ السّوداء. إنّها مُناسبَةٌ تماماً لهكذا مساء.

تخْرُجُ نحو الشّارع اللّيْليّ، وحين تقتربُ من المُفْتَرَق، لا تنحني لليسار هذه المرّة. تتريّثُ قليلاً. تُوزّعُ نظراتكَ بين الاتّجاهات، ثمّ تجنحُ إلى اليمين؛ حيث الزّقاقُ المُعْتِمُ، وقدْ قرّرتَ أن تقْضِيَ ليلةً دافئة.

١٩٩٧

الجولة الأخيرة

الجولة الأخيرة

"صَدِّقني يا رضوان، إنْ (عَشَّرَت) البقرةُ هذه المرّة، ستنال الإيجار الذي تريده، قبل آخر الشّهر، وسيكون (الحلوان) من نصيبك، فادْعُ الله معي... لعلّ وعسى".

قضى أبو عقاب -بكياسته المعهودة، ونبرته الواثقة- على تذمُّر رضوان، سائقِ السيّارة، أسمعه هذه الكلمات التّطمينيّة، التي تعوّد على تكرارها، منذ لم يَعُدْ قادراً على دفع إيجار السيّارة التي ينقل فيها بقرتَهُ -سيّئة الحظّ- للمرّة الرّابعة، وبالدَّيْنِ، أملاً في أن ينجحَ ثورُ الحاج عيسى المشهور بفحولته في "تعشيرِها".

"يا أخي... ما قصّة بقرتك؟! لم يملأ عينها الثّور، ولم يُثمِرْ كلُّ جهدِهِ

فيها، مِثْلُ مَنْ يَحرُثُ أرضاً بُوراً. يعني بقرات حمدان ابن عمك، وبقرات عوّاد الرّاجي أحسن منها، أو إنّ الفَرَس من الفارس، كما يقولون...؟!".

كاد أبو عقاب يبدأ غفوةً لذيذة، لولا إشارات رضوان التي استَفزّتْهُ، فَحَمْلَقَ فيه مُتسائِلاً في دخيلته: "يا ترى، ما قَصْدُ هذا الماكر؟! هل يعرفُ ما لايعرفهُ غيره، ويحملُ نفسَهُ غشيماً؟! إن كان حدسي في محلّه، ستكون فضيحةً بجلاجِلْ، وستصبحُ سِيْرَتي على كلّ لسان".

اجتازت السّيارةُ، بِلَوْنِها الأصفر الفاقع، شوارعَ القرية الضّيِّقة المرصوفة بالحصى والحجارة، نحو الغرب، بسرعة جنونيّة، بينما وضع أبو عقاب يدَهُ على قلبِه، خشيةَ أن يُصيبَ البقرة -الّتي لم ينقطعْ خوارُهَا- مكرُوهٌ، نتيجة ارتطام حوافرها بقاعدة الصّندوق الخلفيّ وأطرافه.

أمّا رضوانُ، فكانت تطفو على سطحِ وجهِهِ ابتسامةٌ ماكرة، وهو يُهَدّيهُ من رَوْعِ أبي عقاب: "يا رجل، ليس إلى هذا الحدّ، لن تُصابَ البقرةُ بأذى، وأنا أكثرُ حِرْصاً عليها منكَ، فَهَوِّنْ عليك". لكنّ أبا عقاب انْصَرَفَ عن الاستماع إليه، حين داهمتْهُ صورةُ المدينةِ التي تركها تحت وطأة الدّيون وإلحاح أمّه: "كنتُ مرتاحَ البالِ فيها، لا قريب يتدخّلُ بي،

ولا جار يتطفّلُ على شؤوني، ولا أمّ تظلّ (تَزِنُّ) فوق رأسي: متى نرى ذُرّيّتَكَ يا بعد كبدي".

"لم تُجِبْني عن سؤالي يا أبا عقاب، أين ذهبَ بك عقلُك؟!".

"هاه، أيّ سؤال؟!"، رَدَّ أبو عقاب، والكَدَرُ يفترشُ ملامحَ وجْهِهِ المكتظّ بالأخاديد -رغم أنه ما يزال في "عِزّ شبابه"-، فنظر إليه رضوانُ بطرفِ عينِهِ اليمنى، قائلاً بصيغةٍ لا تخلو من مزاح: "كأنّك لم تَنَمْ ليلةَ البارحة. معلوم يا عَمّ، وهل ينامُ مَنْ عندهُ امرأةٌ مثلُ فضّة؟!".

"الخبيث رضوان، لا يستَحْيِي على دَمِهِ، ولن يقلعَ أبداً عن عاداتهِ السّيّئةِ. هُوَ هُوَ، بكلماتهِ الملغومةِ، وأسئلته السّمجَةِ كوجْهِهِ"، همس أبو عقاب في سريرته، وأضاف بِنَبْرَةٍ مُتَحَسِّرَةٍ بدا وكأنّها تعلو تدريجيّاً: "قصدك يا رضوان، هل ينام من يسكن في بيتٍ مع ثلاثةِ ديوك، وعشرين دجاجة، صَوْتُ أصغرها يجبرُ -حتى الأطرش- على الاستيقاظ قبل طلوع الشّمس، فما بالك بِمَنْ آذانه (صاغ) سليم؟!".

لكنّه لم يكدْ يفرغُ من قَوْلِ جملته، حتى قفزَ إلى ذهنـــه الـــدّيكُ ذو العُرْفِ الطّويل، الذي يُذَكِّرُهُ دائماً برجولته النّاقصة، فَهَزَّ رأسَهُ باستسلام حزين، والكلمات تتداعى في مُخيِّلَتِه: "صحيح إنّه ديكٌ ملعون، كـــلّ صباحٍ يوقظني بصياحهِ الحادّ، كاشفاً عن رغبته التي لا حدود لها، فلـــم تَعُدْ تملأ عينَيْـــه دجاجـــاتُ الحَـــيّ العـــشرون، ولـــو تـــوفّرتْ لـــهُ

خمسون دجاجة ما اكتفى...". واسترجعَ أبو عقاب المشهد الذي يتكرّرُ كُلَّ صباح؛ الدّيك يركض خَلْفَ فرخة أمّ محمود، حتى "يكْبِسها" تحته، وعندما ينتهي منها، ينتقل إلى الأخريات، واحدة واحدة، دون أن يكلّ أو يملّ، أو تفتر له هِمّةٌ: "حقّاً إنه زير دجاج". لم يجِدْ أبو عقاب أنْسَب من هذا الوصف للدّيك المغرور.

بدا رضوانُ كما لو أنّه في سباقٍ للسّيارات، غير آبهٍ بمكابدات البقرة المسكينة واستغاثاتها، عندما سقطتْ على أرض الصّندوق، فانقطعَ حبلُ أفكارِ أبي عقاب، وانفلتَ صارخاً في وجهِه: "يا (زِفْت) خفِّف السّرعة، وارحمني. حرام عليك. تخيّلْ نفسَكَ مكان البقرة. أليس لها روحٌ مثلك، أمْ...". فقاطعه رضوان بعصبيّة: "بلا رُوح بلا بطّيخ، ألا يكفي أنــي أتحمّلك، وأتحمّل قَرَف بقرتك البُور منذ شهرين، وأني أضــع ســيّارتي تحت تصرّفك تاركاً شُغلي ورِزْق عيالي، بانتظار تنفيذ وعودِك، حــتى يفرجها الله على البقرة وتعشّر. أليس الأَوْلَى أن يفرجها الله عليك أنت، وترى أولادك".

اشتعلَ دمُ أبي عقاب في عروقه، وتطايرَ الشّررُ من عينيــه، فاحْتَــدَّ مُهَدِّداً رضوان بقبضة يده الضّخمة، وقد نفد صبرُهُ: "مــا قَــصْدُكَ ؟! سأُعَلِّمُكَ درساً لن تنساه". عندئذٍ آثرَ رضوانُ الانسحاب من المعركــة، مُتَيَقِّناً من خسارته إيّاهــا لا محالــة إن اســتمرّت: "لا قــصدي، ولا

يحزنون... دعني أنتبه للطريق، حتى لا يقع لنا حادثٌ يقضي علينا وعلى بقرتك المحترمة!!"، فسادَ صمتٌ في السيّارة، كالّذي يسبق العاصفة، مانحاً أبا عقاب فرصةَ الانكماش على ذاته، والاستعداد لجولة أخرى. وطرقتْ أبوابَ دماغه هواجسُ لا نهاية لها: "إنّه يستمتع بحرق أعصابي.. صبراً جميلاً وبالله المستعان"، وظلّ زمناً وهو يغلي كَبُرْكان، مُعْتَصِراً أَلَمَهُ الدّفين، وعاضّاً على سيجارته التي لم تنطفئ بعد، بأسنانه المتآكلة، بينما كانت السيّارة تتابع التهامَ الطريق التّرابية، التي تنحدر إلى الوادي مُفضيَةً إلى الشّارع الرئيسي المعبّد، ورضوانُ يستعرضُ عضلاتِه في قيادتها، بيَدٍ واحدة، بلامبالاته التي تبعث على "النَّرْفَزَة".

"لكنني أنام بما فيه الكفاية كلّ ليلة، رغم وجود معسكر من الديوك في محيطي"، قال رضوان، في محاولة منهُ لاستئناف الحوار الذي انقطعَ قبل دقائق، فتأفّفَ أبو عقاب هامساً: "الوغد رضوان، سَيُجَنِّنِي ويُفْقِدُني صوابي، إن ظلّ يُلْغِزُ بإشاراته الدّميمة. لم أعُدْ قادراً على سماعه أو تحمُّله"، وقفزَ إلى بالِه ما حدثَ هذا الصّباح: فضّةُ تتابع الدّيكَ إلى أنْ فرغَ من فرخة أمّ محمود، ثم تحدج أبا عقاب بعينيها الشّهيّتين، حتى أنّه شعرَ وكأنّها تتمنّى أن تكون زوجةً للدّيك، أو أن يكون زوجُها ديكاً. حينئذٍ أدركَ الزّوج التّعس -بحِسِّ الرّجولة عنده- أنّ الدّيكَ غريمُهُ، وأنّ عليه التخلّص منه، قبل أنْ يُنافسَهُ على فضّة.

"يا حيفْ يا أبا عقاب، تصبحُ ديكاً أو يحتلّ مكانك ديكٌ، ينام مع فضّة على فِرَاشٍ واحد. هل تفكّر فضّة بهذه الطريقة؟ ولِمَ لا! فما زالت في عنفوان شبابها. أَلَيْسَت امرأةً في النهاية؟".

وبينما الأفكار المجنونة تتقاذفه، هبطَ عليه الحلُّ السّحري: "سأبيعه اليوم. سأبيع الدّيك اللّعين، وأتخلّص منه، ومن وجوده الذي يُذكّرني بضعفي. لا، سأنتقم منه شرّ انتقام؛ أذبحه، وآكله، وأرمي عظامَهُ للقطط. إنّه يستحقّ أبشع من هذا المصير". ما إن اتّخذَ أبو عقاب هذا القرار، حتّى انبسطتْ علاماتُ الرّضا على ملامحه، وشعر أنّه يتنفّس الصّعداء للمرّة الأولى منذ حَلّتْ به "نكبةُ" الزّواج.

"أنتَ لستَ طبيعياً اليوم يا أبا عقاب"، حالَ رضوانُ مرّة أُخرى بينه وبين متابعة أفكاره، فَرَدّ: "اتْرُكْني وشأني يا رضوان، فالمصائبُ التي فِيّ تكفيني، وخُلقي ضَيّق هذا اليوم".

"خُلقكَ ضَيّق! من ماذا يا حرام ؟!"، قال رضوان بسخرية امتعضَ منها أبو عقاب، فَصرخَ في وجهه: "اسمعْ، الزّعَل وصَلَ إلى مناخيري. الله يخلّيك، تجنّبْ الحديثَ معي، أحسن لك".

"ماذا جرى لك؟ هل كفرتُ عندما سألتُ عن سبب زعلك. إنْ شاء الله عُمْرَك ما حكيت"، صرخ رضوانُ مُنْهِياً حوارَ الطُّرْشان العقيم بينهما، لكنّه أردفَ واضِعاً قدميه على المكابح عندما فقدت السّيّارة توازُنها:

"حَدَثَ ما كنتُ أخشاه، لقد انْفَجَرَ الإطار الخلفيّ. كلّه بسبب بقرتك ذات الوجه النّحْس"، فانْفَعَلَ أبو عقاب: "هذا هو الناقص. يوم نكد من أوّله، بسبب وجهك الشّؤم، لا بسبب بقرتي".

أوقفَ رضوانُ مُحَرِّكَ السّيارة بعد أن انعطف بها إلى يمين الشّارع، ونزل منها دافعاً البابَ بقوّة، تبعه أبو عقاب بتكاسُل. وحين انْشَغَلَ الأوّلُ بتبديل الإطار، كان الثّاني يَدُورُ حولَ القفص، متفحّصاً البقرة، للتأكّد من عدمِ حدوث سوءٍ لها، ثمّ وقفَ قبالتها، وتأمّلها بكثيرٍ من الشّفقة والرّثاء لحالها، فَبَدَتْ في ناظريه وكأنّها تُؤَنِّبُهُ على ما فعله بها، وتشكو من سياقة رضوان المُتهوِّرة: "أكيد أنّها بحاجة إلى ذَكَر، وتتمنّى أن يكون لها ابنٌ، مثلُها مثلُ باقي الكائنات. اللّعنة، كلّهن متشابهات؛ زوجتي، والبقرة، والدّجاجة، لا فرق بينهنّ".

كانت أفكارُ أبي عقاب تقودُهُ إلى تُخُومِ هستيريا حتميّة، فَنَفَضَهَا من رأسه، وقَرْفَصَ في مواجهةِ رضوان، لكنّ حماراً كان ينهقُ بالقرب منها شَدَّ انتباهَهُ، فطابَتْ لَهُ مراقبَتُهُ: كان يترنّحُ متقافزاً بأَرْجُلِه الأربعة، ثمّ انقضّ على أتان قريبة منه حاولت مراوغته، والهروب من هجومه المفاجيء. "لا بُدّ أنّ لها تَلَفِّيّ الخاطر، لكنّها تَتَلَذّذُ في تعذيبه. هكذا كان يقول لي جدّي رحمة الله عليه".

صاحَ به رضوانُ وهو ينفضُ عن يديه التراب والغبار: "هيِ يا رجل، هل

ستبقى على هذه الحال كثيراً؟! لقد انتهينا".

تابعت السّيارةُ مسيرَها نحو الثَّوْر الفَحْلِ الذي سيَحلّ مشكلةَ البقرة، وأبو عقاب ما يزال يُشيّع الحمارَ بنظرات وداعيّة حاسدة: "لــو كنــتُ مجرّدَ حمارٍ مثله، أو ثَوراً كالذي يملكُهُ الحاج عيسى، أقضي نهــاري في (هَدّ) البقر، وكلّ شيء متوفّر لي؛ الطعام والشّراب والمنامــة المناســبة والدّلال. على الأقلّ لَمَا كنتُ تزوّجتُ فضّة، وتورّطتُ هذه الورطة".

تذكّرَ اليومَ المشؤومَ؛ يوم زفافه:

"شِنّ اقْليلِهْ. شِنّ اقْليلِهْ

الله يعينُهْ عَ هاللّيلِهْ

تْهيّا يا تَحْت تْهيّا

نوم الصّبايا غيّا".

حَمّمُوهُ أوّلاً:

"طلْعِ الزّين من الحمّامْ

الله واسْم الله عليه".

حسدوهُ أولادُ الكلب! كان الأكثرَ فُحُولَةً بينهم، بل وكان مَضْرَباً للمَثَلِ بِشاربَيْهِ المعقوفين اللّذين ارْتَسَما فوق شفتيه قبــل أبنــاء جيلــه بِسَنَوات، فكانا سَبَبَ التصاق كُنْيَة "أبو عقاب" به واشْتِهاره بها. شارباه

اللّذان أصبح يشعُرُ أنهما تَمرّغَا بالذُّلّ و"تمَرْمَطا" بالطّين بعد زيجَته.

كيف لا، وقد هَرَبَ من القرية إلى المدينة، مَنْعاً لأقاويل النّـــاس، وتَنصُّلاً من تساؤلاتهم ونصائحهم المتكــرّرة، بمناســبة، ومــن دون مناسبة:

– متى يأتيكَ الوَلَدُ الصالح!

– زُرِ الطّبيب، فَرُبّمَا يكون العَيْبُ فيك!

– أكيد معمول لكَ عمَل، ولا يَفكّهُ غير الشيخ إبراهيم!

– خَلِّ زوجتك تمتنع عن شُربِ الشّاي صباحاً، فهو يعيق الحَبَل!

لم يكن يريدُ الزّواج، لكنّ أباهُ أجبرَهُ عليه، مُناكفَةً لخليـــل وابْنِــهِ اللّذَين طَقَّا من الغيظ، عندما علِمَا أنّ فِضّة ستكون من نــصيبهِ. حـــتى رضوان، رفَضَهُ أبوها مع أنّه ابنُ خالتها. ولم يَقِفْ في وجهِ أبي عقـــاب سوى حماته، التي فضّلَتْ رضوانَ عليه –كما أخبرته زوجتُـــهُ لاحقـــاً– وحاولتْ إقْناعَ ابْنتها بقبول ابن أختها لمزاياه المتعدّدَة، لكنّ فضّةَ كانت ميّالةً لأبي عقاب، لأنّ عليه "هيبةَ الرّجال"، وهذا يكفيها (كما تقول له دائماً).

انعطفَت السّيارةُ إلى حيث الطّريق الفرعيّة التي تنتهي بمزرعةِ الحاج عيسى. وحين بدأ رضوانُ يَترنّمُ بأغنيَةٍ شعبيّةٍ ساحرة، ثارت ثـــائرةُ أبي عقاب للمرّة الألف، وشتَمَ اليومَ الذي عرفَ فيه رضوانَ واحتاجَهُ فيـــه،

فما كان من الأخير إلاّ أن ضغط على زرّ "الزّامور" المُـزعِج، وكأنّـه يعزف على آلة موسيقيّة، قبل الدّخول عبر البوابة الكبيرة إلى السّاحة التي شَهِدَتْ "تَعْشير" معظم بقرات المنطقة منذ ثلاث سنوات ونيِّف –هـي عُمْرُ فُحُولَة الثَّور–، وهناك لوّحَ أحَدُ العُمّال للضّيْفَين، ودعاهُمَا بإشارة من يده إلى إطفاءِ المُحَرِّك والجلوس في الاستراحة.

أطَلّ الحاج عيسى مُرَحِّباً من شُرْفَةِ بيتِهِ –الذي اختارَ لهُ بقعةً نائيـةً مُنعزِلَةً عن المدينة والقرى المجاورة، وبنى فيها مزرعته التي تـضمّ شـتّى صُنُوفِ البهائم والأنعام– وأصدرَ أوامِرَهُ للعُمّال بِحَـلّ ربـاط البقـرة وإنزالها من القفص، لترتاحَ قليلاً قبل إنجاز المهمّة التي جـيءَ بهـا مـن أجلها، ثُمَّ اصْطَحَبَ ضيفيه لشُرْبِ القهوة السّادة، والثرثرة في قضايا لا أهمّيّة لها ولا جامع بينها، إلى أن قال مُسْتَدْرِكاً: "يبدو أنّ البقرةَ مُرهقَةٌ من الرّحلة الطّويلة، لذا سيقومُ عُمّالي بالواجب، ويُكْرِمُونَهـا بـالعَلَف، وثَوري لن يُقصِّر، فَسَيُرْضِيها ويُبْسِطها، ولِحُسْنِ حَظِّها، لقـد مَنَحْتُـهُ إجازة منذ ثلاثة أيام، لم يقتربْ فيها من بقرة. سَتَحْمِلُ منه بعون الله".

عَلّقَ رضوانُ مُبْتَسِماً: "ما شاء الله على ثَورَك، كلّ مَنْ عنده بقـرة حَمَدَ فيه، وتَحَدّثَ عن قدرته الفائقة. الله يُخَلّيه في صحته وعافيته، ويحميه من عين الحسد". واكتفى أبو عقاب باللاتعليق، والغيرةُ تنهش قلبَـهُ، عندما تذكّرَ الحاجَ قصّةَ الدّائم عليه، لِيُحَدِّثَهَا عـن الثَّـوْر، وتَـشَوُّقِها

لِسَماعِ تفاصيل ما يحدُثُ في المزرعة بعد كلِّ رحلة.

كان العُمّالُ قد هيّأوا البقرةَ في الوضع المثاليّ الذي يُمكّنُهم من التّحكّم بانفعالاتها، فَحَشَا أحدُهُمْ فتحتيّ أنفها بإصبعَيْه؛ السّبابة والإبهام. وحين أطَلّ الثَّوْرُ من بعيد، وقفَ الجميعُ يتابعون خطواتِه الواثقة كما لو كان قائداً على رأسِ جيشٍ عرمرم، ثُمَّ هاجَ وماجَ في أرجاء المزرعة، حتى دنا من مبتغاه، فاندفع العُمّالُ خلفَهُ، وشاغَلوهُ بحركات مدروسة، إلى أن تمكّن أقواهُمْ بنْيَةً من تقييد حركتِهِ بـ"كمّاشة" يده.

أشعلَ أبو عقاب سيجارةً أُخرى، دون أن تغادرَ عيناه المشهدَ الذي راقَ أيضاً لرضوانَ: البقرةُ تُراوِغُ يميناً ويساراً في دلال، والثَّوْرُ قاب خطوتين أو أدنى من اعتلائها والوُلُوجِ فيها: "كلّهن نساء"، كان يقول جدُّ أبي عقاب "مثل حَبِّ العَدَس، لا تعرف بطْنَهُ من ظَهْرِهِ".

همسَ أبو عقاب في نفسه: "الثَّوْرُ لم يَسْتَشِرْها بما ينوي فِعْلَهُ. هذه هي الرّجولة. أمّا أنا، فلَمْ يَقُدْني إلى هذه الحال التي أنا فيها إلاّ المُشاورة. كان من المفروض أن أقطعَ رأسَ القطِّ من اللّيلة الأولى، وليَكُنْ ما يكون. لَتَخلّصْتُ من هذا الواجب، وارتحتُ من تبعاته، بدلاً من هذا النّكد الذي يملأُ حياتي".

أطْبَقَ الثَّورُ على البقرة التي كانت تتلوّى تحت وطأةِ ثقله، واتّحدَ

حوارُهُ المُتَقَطِّعُ مع حوارِها المخنوق. كانت لحظات عــصبيةً علــى أبي عقاب الذي قال بِتَوَجُّس: "أخشى أن يُضايقَها كثيراً"، فابْتَسَمَ الحــاجُّ عيسى، وهو يرد عليه بنبرة توحي بخبرته: "لا تَخَفْ. هذا يعــني أنّها تريده، وأنّها مرتاحةٌ للوضع. يا عيب يا أبا عقاب، كأنّــك لا تفهــم النساء!".

ونَدَتْ عن رضوان ضحكَةٌ ماكِرَةٌ مزجها بكلماتِــه: "والله ثُــورك أقوى من عشرةِ رجال مثل أبي عقاب"، فَفَغَرَ أبو عقاب: "مــا أوقــح تشبيهك"، لكنّ رضوان خفّفَ من حِدَّةِ الجَوِّ المُتَوَتِّر بينهما بِقوله: "يــا رجل، مُجَرَّد مُزاح فقط، ألا تُطيقُ المزاح!".

لم يشأ أبو عقاب أن يَرُدَّ عليه، واكتفى بالاســتماعِ إلى حــديثِ الحاج عيسى عن سُلالَةِ ثَوْرِه العريقةِ التي تمتَدُّ حَسبَ زعْمِــه إلى أحَــدِ ثيران الملك "ريتشارد قلب الأسد"، التي جلَبَها معه إلى بلاد الشّام إبــان الحروب الصّليبيّة.

كانت أنفاسُ الثّور تتصاعد وهو يُؤدّي واجبَهُ على أكْمَــلِ وجْــه؛ بينما البقرة تتراقص على إيقاعِ الرّغبة راضِخَةً له، والأنــينُ المخنــوقُ ينْبعثُ من كليهما، وكأنّهما في معركة حقيقيّة، لَمْ تُحْسَم نتائجُها بَعْد.

وبعدما انخفضت وتيرةُ الأنفاس، فَكَّ الشّابُّ كمّاشةَ يده من أنْفِ البقرة التي بدا أنّها بلغت ذروة النشوة، وفَعَلَ الآخَرُ مثله بالنِّسْبَة للثَّــوْرِ الــذي

انتَفَضَ وكأنّ شيئاً لم يحدُث، مُستعداً لقسطٍ من الرّاحة، في انتظار مهمّة أُخرى جديدة تُوكَلُ إليه.

رَفَعَ الرّجالُ البقرةَ إلى قفصِ السيّارة، وقيّدوها بالحبال جيّداً. وبمراسيم وداعيّة تتكرّر دائماً، قال الحاج عيسى لأبي عقاب الذي دفعَ له بَدَلَ أتعابِ ثوره: "إن شاء الله تُعشّر البقرةُ هذه المرّة، وتُنْجبُ ثَورين مثل ثَوري، وعُقْبالُ الخَلَف الصّالح لك يا أبا عقاب"، فتمْتَمَ أبو عقاب: "حيّ أنتَ يا حاج عيسى"، مُضيفاً بأسى دون أن يسْمَعَهُ أحَد: "كان يوماً أسْوَدَ ذلك اليوم الذي تزوّجتُ فيه فضّةَ، وكانت ساعةً بائسةً تلك التي طاوعتُ فيها أُمّي، وَعُدتُ إلى القرية".

انْطَلَقَت السيّارةُ عائِدَةً من حيث أتَتْ، وشَتَّ ذهْنُ أبي عقاب، فيما كان يُحاولُ اسْتعادة تفاصيل ليلَتِهِ الأُولى مع فضّة من أعماق ذاكرته: كانَ خَجُولاً أكثر منها، وكانَ ثمّة في الخارج نساءٌ ينْتظِرْنَ الخَبَرَ السّعيدَ لِيُطْلِقْنَ الزّغاريد، ورجالٌ مَلأوا "بواريدهم" بالرّصاص، لكنّ البُشرى تأخّرَت أكثر مما تَوقّعَ النّاس. كان الموضوعُ مَدارَ رهان رفاقه: "سَيَخْرُجُ خلالَ دقائق معدودة"، لكنّ السّاعات انقضتْ، وهو بَعْدُ لم يَخرُجْ، فَبَرَّرَتْ أُمُّهُ ذلك بخَجَلِ ابنها في الإفصاح عن رُجولَتِه، ولَمْ يُشَكِّكْ أحَدٌ في قَولِها، فَكُلّهُم يعرفون أبا عقاب، ويُدْركون سَلَفاً أنّهُ سَيُبَيِّضُ وَجْهَ أهلِهِ من الجَوْلَةِ الأُولى، فالأمرلا

يحتاج –بالنسبة لأبي عقاب– إلى جهد كبير أو وقت طويل، كما يعتقدون.

مَضَت اللّيلةُ الأولى، والعروسان أسيرا الغرفة، قالتْ له إنّها مُرْهَقَةٌ وحائضَة، فأدارَ ظهْرَهُ لها ونام. وفي اللّيلةِ الثّانية أعادَتْ على مسامعه الأُسْطوانَةَ ذاتَها، فلَمْ يلمسْها مانحاً إيّاها فُرْصَةً أُخرى. وفي اللّيلة الثّالثة أخْبرَتْهُ إنّ ظُروفاً طَرَأتْ عليها تَمْنَعُ اقْترابَهُ منها لعدّةِ أيّام، فَصَمَتَ على مضَض. وتَوالَت الأعْذارُ، حتّى جاءَ اليومُ الذي قَرَّرَ فيه أنْ يُنْهِيَ المسألة، وحين حاوَلَ منيَ بالفشلِ، فقد كانَ الجدارُ الذي شَيَّدَتْهُ الرّهبَةُ بينهما أقوى من إرادَتِهِ ورجولته. أمُّهُ رأتْ في فضّة نذيرَ شُؤْم، فأصَرَّتْ أنْ يُطَلِّقَها، لأنّها عاقر ولا تُنْجِبُ –على حَدِّ قَوْلِها–، وطالَبَتْهُ بالزّواج من ابْنة أخيها لِتَمْنَحَهُ وَلَداً، فما كانَ منْهُ إلاّ أنْ هَرَبَ إلى المدينة.

مسْكينَةٌ أمُّهُ. لم تَدْرِ أنّ عامين مرّا، وفضّةٌ هي فضّةٌ؛ عُودُ الرّيحان الذي لم يشمّهُ بعد، والعذراءُ التي عَرَفَها قبل الزّواج.وفي المقابل، ظلّتْ أمُّ فضّة تُؤَنِّبُ ابنتها على هذه الزّيجَةِ غيرِ المُوَفَّقة، وعلى هذا الزّوْج "الطَّرْبيلة"، ولا تفتأ تُذَكِّرُها بأفْضَلِيَّةِ رضوان –وغيره مِمّن تقَدَّمُوا لِخطْبَتِها–، واسْتِعْدادِهِ للزّواج منها إنْ هي ترَكَتْ أبا عقاب.

عامان في المدينة، عاشَ فيهما أبو عقاب وفضّةُ الأَمَرَّيْن؛ راجَعَا الأطبّاء وامْتلأَ بيتُهُما بالوصفات والحُجُبِ والأدْوِيَةِ دون أن يَجْنِيا فائِدَةً

تُذكَر. وحين تراكَمت عليهما الدُّيون، وتكاثَرَتْ مُتطلَّباتُ الحياة، وفشل مشروعُ البقالةِ الذي كان أبو عقاب يُعَوِّلُ عليه كثيراً، أُجْبِرا على العودةِ إلى القرية، لِتتحوّلَ حياتُهما إلى جحيمٍ مُضاعَف، بِسَبَبِ هَمْـزِ النّـاسِ ولَمْزِهم.

"لو يَعْرِفُونَ أنّي لَمْ أتقدَّمْ خطوةً بعد، وأنّ المُشْكِلَةَ ليست كما يَظنُّون"، تَمْتَمَ أبو عقاب، مُتجاهِلاً ثرثرةَ رضوان وأسْئِلَتَهُ التي تفضحُ نواياه السيِّئة دائماً.

أعْلَنَ "الزّامُورُ" وصولَ السيّارة، فَخَرَجَتْ فضّةُ بِثَوْبِها الشَّفيف، لاستِقْبالِ زَوْجِها الذي أسْرَعَ في تحريرِ البقرةِ من سِجْنِها، بينما سالَ لعابُ رضوانَ، وهو يَفْتَرِسُ صَدْرَها بعينيهِ الشَّرِسَتين، ويُشبِعُ نظراته من أُنوثَتِها التي تمنّى أن يتملّكَها لِساعةٍ واحدةٍ مُقابِلَ عُمْرِهِ كُلِّه، وقبل أن يمضي أكّد على أبي عقاب أنْ يَفِيَ بِوَعْدِهِ إنْ حملت البقرةُ، وتمتم في سريرته: "لو تدري يا أبو عقاب. كِرْمالْ عيون فضّة أنا مُسْتعِدٌّ أن أعْمَلَ عندك سائقاً دون مقابل".

أجَالَ أبو عقاب نظرَهُ في الحَوْشِ بَحْثاً عن الدّيك، وعندما لم يَرَهُ، الْتَفَتَ إلى فضّة وسألها عنه.

تلعثمت في الإجابة، فكرر سؤاله.

"مات..."، قالتْها بصوت حزين.

"مات...!!" صَرَخَ متفاجئاً.

"دَهَسَتْهُ سيّارةُ عوّاد الرّاجي بعد ذهابكم بقليل..." قالت، مضيفةً: "مسكينة فرْحَة أُمّ محمود، انْكَسَرَ خاطِرُها وترمّلت... تبحثُ عنهُ منذ الصّباح، ولا تعلمُ أنّها فَقَدَتْهُ إلى الأبد".

...وهي بعد لم تكملْ جملتَها، كانَ ثَمَّةَ دماءٌ حارّةٌ تتلاطَمُ في عروقِ أبي عقاب، فقاطعها بنَبْرَةٍ آمِرَةٍ لم تعْتَدْهَا منه من قبل: "اتبعيني"، وسَبَقَها إلى غرفةِ النّوم، متأكّداً من انْتِصارِهِ على نَفْسِهِ هذه المرّة!

١٩٩٦

٥٩

ضجيج

ضجيج

وأخيراً، أصبح لي بيتٌ أسكُنُهُ ويَسْكُنُني.

بيتٌ صغيرٌ، أنيقٌ، يَحْتَلُّ الطابقَ الثّاني من بنايةٍ حديثة في حيٍّ سَكَنِيٍّ ناشيءٍ على أطراف المدينة.

ورغم الجهد الذي كان عَلَيَّ أن أبذلهُ وأنا أقطع المسافةَ الطّويلةَ من أقربِ موقفٍ يَصِلُهُ الباصُ إلى بيتي، إلاّ أنّ السّعادةَ كانت تجتاحُني، كلّما صعدْتُ دَرَجاتِ المبنى السِّتّ والعشرين، وهَمَمْتُ بـإخراج السّلْسلةَ الطّويلة التي يتدلّى منها مفتاحُ البابِ الخارجي بكبرياءٍ، بين المفاتيح الأخرى.

***

في الحقيقة، لم يسبقْ أن كان لي بيتٌ كهذا الذي أحدّثكم عنه، أو كغيره، فمنذُ أعلنْتُ تمرُّدي على العائلة، وأنا "ابنُ شوارع" كما يحلو لأصدقائي أنْ يدعوني، فتنقّلْتُ خلال ثلاث سنوات (هي عمر تمرُّدي الذي بدأتُهُ قُبَيْلَ تخرُّجي في الجامعة بشهور) بين ثلاثين بيتاً وشقّةً وغرفةً هي ليستْ لي، ولم يكن شيءٌ ممّا فيها من مُمتلكاتي، حتّى أنّني اكْتسبْتُ لَقَبَ "حبّة القَلِيّة" عن جدارة!

وعندما دخلَ البيتُ إلى حياتي، تبدّلَتْ طِباعي، وانْقَلَبَ بعضُها رأساً على عقب. فقدْ أصبحتُ أكثرَ ميْلاً للتَّعرّي، واسْتِعْراضِ جسدي النّاحل أمام المرايا المُعلَّقَة على الجدران بأحجامها المختلفة، وأضفتُ إلى سلوكاتي التي أميّزُني بها عادةً جديدة، ولكن ليست مخجلة؛ أعني ترك أصابعي تلهو بالسِّلْسِلَةِ المعدنيّة ذات المفاتيح الخمس؛ واحدٌ لخزانتي التي كنتُ أستخدِمُها أثناء دراستي الجامعيّة، والثّاني لباب بيتي، والثّالث والرّابع والخامس لا أعرفُ من أين حصلْتُ عليها، إذْ ليسَ لها أبواب.

***

بيتي مُكَوَّنٌ من ثلاث غُرَف، وصالة متوسّطة المساحة، ومطبخ واسع، وحمّامٍ وتوابعه، وفيه ثماني نوافذ، وخمسة أبواب، عدا الباب الخارجي، وهو رقمٌ قياسيٌّ، لا أظنُّ أنّ أيّاً من بيوت أصدقائي كان له مثله، ولا أعتقدُ أنّ أحداً منكم يُخالِفُني في أنّ مساحةَ الحُرّيّة التي يشعرُ

بها المَرْءُ في بيتِه تتناسَبُ طَرْدِيّاً مع عَدَدِ الأبواب والنوافذ فيه.

وعلاوة على ميزاتِه المعماريّة، وألوان جُدْرانِه المُخْتارة بعناية، فقد حقّق لي بيتي مطلباً طالما سَعَيْتُ للوصولِ إليه، وهو العُزْلَة. العُزْلَةُ التي اخْتَرْتُها، حينما اخْتَرْتُ أن أَسْكُنَ في هذه المدينة الجنوبيّة حَدَّ التَّطَرُّف، مُفْتَرِضاً أنّي سأُنْجِزُ مشاريعَ لا آخِرَ لها، تأجَّلَتْ بِسَبَبِ انْشِغالاتي الدّائمة واكتظاظي بالعلاقات التي استَنْزَفَتني، وبدَّدتْ طاقاتي خلال تواجُدي في العاصمة.

نعم. لقد منحني بيتي الحَدَّ الأعلى من العُزْلَة التي يامَا بَحَثْتُ عن حَدِّها الأدنى، مما جعلني أحسد نفسي كلّما فَكَّرْتُ فيها: لا أصدقاء، لا أقارب، لا ناس أَعْرِفُهُمْ أو يَعْرِفُونَني، حتّى أنْ لا أحد يخطِئُ عنواناً يبحثُ عنه فيطرُق بابي ولو على سبيلِ الاستفسار.

وبهذا الانقلاب في حياتي، بدأتُ أعي ما يقْصِدُونَهُ بـ"البيت": أن تَكُونَ أَنْتَ مُلْكَكَ، وأنْ تَفْعَلَ ما يحلو لكَ، دون أن تشعُرَ أنّكَ مُراقَبٌ من أحَدٍ، ما دامت السّتائِرُ الزّرْقاءُ السّميكةُ تَتَوزّعُ هنا وهناك في وَجْهِ زجاجِ النّوافذ الشّفيف!

***

مَرّتْ عشرةُ أسابيع كما أشتهي، قرأتُ فيها ثلاثةَ عشر كتاباً، وأنْجَزْتُ قصّتين وقصيدةً طويلة، وغيّرْتُ مكانَ سريري أربعين مرّة،

وكتبتُ تسعَ رسائلَ لأصدقاء أحياء وآخرين راحلين -لن تصلَ إليهم لأنّي لم أبعثها-، وفكّرتُ بمشروعِ روايةٍ أحشدُ فيها الكمَّ الهائل من التجارب التي عشتُها خلال الغيمات الثلاثين التي مرّتْ من شتاءِ عُمْري.

لكنّ شعوري بالوقت بعد ذلك بدأ يتغيّر، ومزاجي أصبحَ غائماً على الغالب. الأيّام تتباطأ، واللّيالي تزحفُ بثقلٍ على كاهلي الهشّ. وبيتي؛ بيتي كأنّهُ يتحوّل إلى قبرٍ يَضيقُ عَلَيّ بالتّدريج.

"ما أقبح اعتياد الأشياء، وما أشدّ وطأة عُزْلَتي التي اختَرْتُها بإرادتي"، هَجَسْتُ وأنا أُقاسي وحدةً تكبرُ كُلّ صباح، فهل من عاقلٍ يختارُ منفى لِيَسْتأنفَ حياتَهُ فيه؟

تمنّيْتُ أحياناً لو أنّ لي جيراناً كباقي النّاس، يَقْضُون مضجعي في ليالي وحدتي، يؤنسونني بشجاراتهم الصّغيرة، بأصواتهم الهادرة في سهراتهم المُكتَنزَة بالثّرثرات. ويامَا ابتهلتُ: "...لو يا ربّ تمْنَحُني جاراً واحداً، أسمعُ صريرَ باب بيتهِ حين يدخلُ إليه أو يخرجُ منه، لأتأكّدَ أنّي ما زلتُ على قيد الحياة، لا على قيد العُزلَة التي تتنامى في داخلي وتلوّن أيّامي بقتامةٍ لم أعُدْ أحتملُها".

***

أدركْتُ أنّي أوْقَعْتُ نفسي في ورطةٍ غير محسوبةِ النّتائج، ماذا لو

كنتُ أسكنتُ معي شخصاً آخر، أقول له: صباح الخير، أو مساء الخير، أَرُدُّ عليه التَّحِيَّةَ فقط، أنتظِرُ قدومَهُ كي أشعُرَ أنّ هناك مـن يُـشارِكُني الحياةَ، وأستَعجِلُ خروجَهُ كي أتَنَعَّمَ بوحدتي القصيرة. لماذا لم أختَرْ شقّةً في عمارةٍ تَزْدَحِمُ بالسّاكنين. من المؤكد أنني كُنْتُ سـأتَعَرَّفُ إلى ذاتي جيداً وسْطَ زحامهم، بَدَلَ أنْ أُضَيِّعَها / أُضَيِّعَني هنا، في غَبَش الـسّكون اللانهائي الذي يُطبقُ على ضُلوع المكان.

***

اهْتَدَيْتُ -بعد عناءٍ في التّفكير- إلى حَلٍّ يُخرجُني مـن مـأزقِ وحدتي.

استَدعَيْتُ أحَدَ المُتَخَصِّصين في "الكهرباء"، وطلبتُ منه ضَبْطَ جَرَسِ البابِ الخارجيّ، بحيث يرنّ كُلّ نصف ساعة وَحْدَهُ، ثم يَتَوَقّفُ بعد دقيقةٍ (أوتوماتيكيّاً)، ودون أن يَلْمِسَهُ أحَدٌ.

إنّها خير وسيلةٍ لِلتّحايُلِ على ما أنا فيه، فكُلّمـا سَـمِعْتُ الـرّنينَ أوْهَمْتُ نفسي أنّ هناكَ مَن هو بالخارجِ، ينتظِرُ أنْ أفتحَ البابَ له، ولكنه يعودُ أدراجَهُ وفي ظنّه أنّي لستُ في البيت.

انْهَمَكْتُ في القراءةِ والكتابة، وفطنْـتُ كـلّ نـصف سـاعةٍ إلى وجودي، وأصبح الجَرَسُ صديقي الذي يَتَفَقّدُني دائماً، ويُعيدُ التّـوازُنَ لعلاقتي مع العالم. ولأنّ زيادة الخير خير، فقد اشْتَرَيْتُ في اليـومِ نفـسه

(دزّينة) من الساعات بأحجام مختلفة، مُزوّدَة بمُنبِّهــات ذات أصــوات مُتبايِنَة في الإيقاع والحِدَّة؛ من النّاعم الرّومانسي إلى الفَجّ الغليظ، وقُمْتُ بضَبْط كلّ مُنبِّه عند وقت معيّن. أصبحتُ أسمعُ هديلَ الحَمام، وأنــا في الحَمّام. وفي المطبخ، جَرَسٌ خشنٌ يَخترقُ أُذُنيّ. وعند انْشغالي بــالقراءة تداعبُ أذني مقطوعةٌ موسيقيّةٌ بهَالَة فيروزيّة. وهكــذا مــلأتُ بــيتي بالأصوات، وصارَ من الرّوتيني والمألوف أنْ يَتزامَنَ رنينُ جَرَس البــاب المنتظم في توقيتِه مع صوتِ أحَدِ المُنبِّهات المُوزَّعَة بين الغُــرَف الــثّلاث والصّالة لِيَصْنَعا معاً "أوركسترا" تُسْعِدُني أكثر ممّا تُزْعِجُني!

***

لكنّني لم أحْسب النتائجَ جيّداً، إذْ كنتُ مُضْطَرّاً إلى الاستيقاظِ أثناء نومي عشرات المرّات كلّ ليلة، تلْبِيَةً للأصواتِ المُنبعِثَة من هنا وهناك في قلبِ الظّلام، محاولاً إسكاتَ ما تَصِلُهُ يدايَ منها.

واستحالَ اللّيلُ مقبرةً من الأصوات التي تَتوغّلُ في لاوعيي، وتُوَلِّــدُ كوابيسَ تُرعبني كُلّما أغْمَضتُ جفْنَيّ خلسَةً لاصطيادِ نومَةٍ قــصيرةٍ لا أطالُها.

ورغم ذلك، فقد تعايَشْتُ مع المسألة على اعْتبارِ أنّها أمرٌ واقِــعٌ لا مَهْرَبَ منه، وتَحَوّلَت الأصواتُ اللّيليّة من نَشَازٍ كَريه لا أستــسيغهُ، إلى طَقسٍ مُحَبَّبٍ لَدَيَّ أبرزُ فيه قدراتي على التّخيُّلِ، ومعرفَةِ مــصدرِ كــلّ

صَوت لإيقافه، خصوصاً بعد أنْ دَرَجتُ على تبديلِ مواقـــع الـــسّاعات يومِيّاً لأُمارِسَ لُعبَتِي المُفضّلَة معها.

***

بدأتُ أتقبّلُ فكرةَ أنّ الأصواتَ كائناتٌ تـــسكُنُ مثلـــي في بـــيتي، تُشارِكُني الوقتَ والهموم، وتقْتسِمُ معي تفاصيلَ يومي، ووَجَدْتُني من غيرِ تخطيطٍ مُسْبَقٍ أُقيمُ معها علاقةً بدت تميل إلى الودّ أكثر فأكثر، بعـــد أن أصبحتْ جزءاً من عالمي. إذا لَمْ ترنّ ساعةٌ عند الوقتِ الذي ضَـــبَطْتُها عليه، اعتَقَدتُ أنّها مريضةٌ أو مصابَةٌ بصداعٍ رغم أنّ مشكلَتَها قـــد لا تتعدّى نفاذَ طاقةِ البطّاريّة. وبلغَ الأمرُ بي أنّني وهبتُ السّاعاتِ أسمـــاءً، أُناديها، وأُدَلِّلُها، وأُميّزُها بها عن بعضِها بعضاً.

وعندما لاحَظتُ قبل أيّامٍ ثلاثة، أنّ هناك مُنبِّهات تُطلِقُ أصـــواتاً في غيرِ الأوقات التي اعتَدْتُ عليها.

قلتُ لنفسي إنّه من الطّبيعي أنْ يَحْدُثَ لها هكـــذا خَلَـــل، لكثـــرةِ الاستعمال، وهذا لن يُضيرَني ما دامت في النهايـــة تعمـــل، وتُـــذَكّرُني بوجودِها ووجودي.

***

المؤْسِفُ هو ما حَدَثَ فَجْرَ هذا اليوم. أمرٌ لم يكُنْ على البالِ ولا في الخاطر. أفَقْتُ هلعاً على صوتٍ ضخمٍ مفـــاجىء. صـــوت أعْرِفُـــهُ ولا

أعْرِفُهُ. صوت بدا لي أنّه يَتَقَصّدُني أنا بالذّات. وَضَعْتُ سبّابتي في أذني، محاولاً تخفيفَ شِدَّتِه، ولكنه واصل ارتفاعه.. ولم يتوقّف الصَّوْتُ الذي لم يكُنْ سوى صَوْت جَرَسِ الباب والمُنبِّهات مجتمعةً، وكأنّما أصابها انهيارٌ عَصَبِيٌّ وخَرَجَتْ عن أطوارها.

احْتَرتُ من أين أبدأ، وكيف أُكَمِّمُ أفواهها وأقضي على مكامن "الفتنة" فيها، قبل أن أفقد عقلي.

قفَزتُ باتّجاه أقربِ مُنَبِّه لي، وحاولتُ كَتْمَ أنفاسه، فلَمْ أُفْلِحْ. وكذا كان الحالُ مع البقيّة التي تيقّنتُ أنّها تتآمرُ عَلَيّ وتتحدّاني. حتّى صديقي –جرس الباب– تمرّد عَلَيَّ، ورَفَضَ الانصياعَ لِتَوَسُّلاتي إليه أنْ يَصمت.

أعلنتُ هزيمتي، وخَرَجتُ بجنونٍ من بيتي حاملاً حقيبةَ ملابسي بما حَوَتْ إلى الشّارع، وها أنذا أكتبُ قِصّتي في المقهى، وقد قـرَّرتُ أنْ لا أعودَ إلى بيتٍ تَسكُنُهُ كُلُّ هذه الأصوات.. بيت كانَ لي وحدي!!

١٩٩٩

نُقوشُ الرّاحلين

نُقوشُ الرّاحلين

وها أنتَ تقفُ الآنَ هُنا؛ واحداً أحَداً.

تماماً في مُنتصَفِ المَسافَة. لا أنتَ تمضي قُدُماً، فَتَبَعثُ الحياةُ في أوْصالِ الذّكرياتِ، ولا أنتَ تَعُودُ أدْراجَكَ، فَتُطلِق رصاصةَ الرّحمةِ الأخيرةِ على جُثّتِها المُحنّطَة.

وها إنّكَ الآنَ هُنا؛ مُعلّقٌ بين برْزَخِ الذّاكرةِ، وأرْوِقَةِ النّسْيان. يَتنازَعُكَ حنينٌ تُحاولُ أنْ تُهمِلَهُ فلا يُمهِلُكَ، وحاضِرٌ يقولُ لَكَ: "حذارِ أنْ تلتفتَ للماضي. لا وقتَ لديكَ، وأنتَ ابنُ اليوم"، لكنّكَ تُراوِغُهُ مُتجاهلاً سطْوَتَهُ.

تُقلِّبُ نظرَكَ في ما حولَكَ؛ كلّ شيءٍ مثلما هو، وكأنّكَ تركتَهُ البارحة. كلّ التّفاصيل مُعدّةٌ لِبُكائكَ. وثَمّةَ صوتان؛ واحدٌ يُغريكَ بالبقاء، والآخر يَندَهُكَ من غياهِبِ الأعماق: "عُدْ، فما جدوى الوقوف على الأطلال؟".

لكنّكَ الآن، والآن فقط، تَحزمُ أمتعتَكَ باتّجاه الماضي، محفوفاً بالنّدَم، ومُشتَعِلاً بالنّحيب.

الآن، فقط، تعودُ إليكَ، توّاقاً إلى الانعتاق من جليد العقوق الذي راكمتهُ الغُربَة. فَهَل وَصَلتَ مُتأخّراً؟

قلبُكَ يرتَجِفُ كَقَلْبِ عصفورٍ مُبَلَّلٍ بالمطر.

"القلبُ الجريءُ دوماً يُحَطِّمُ الحَظَّ السّيّئ"، هكذا كنتَ تقول. فلماذا يَخذلُكَ وتَتَعثّرُ خُطواتُكَ الآن؟

هل تَهربُ من نفسك؟ وإلى أين؟

كلُّ هذا التّوَجُّس فيكَ، وأنتَ بَعْدُ لَمْ تجتَز الطّريقَ بين لسعةِ الرّحيل ووخزةِ الرّجوع!

أيّةُ ارتعاشةٍ أصابَتكَ الآن! أيّةُ رهبة!

كم أنتَ مُحتاجٌ إلى جُرعةٍ من شجاعة، تمنَحُكَ القُدرَةَ على أنْ تُصالِحَ ذاتَك، وعلى أنْ تكونَ وَفيّاً لِصَهيلِ رُوحِكَ البَرّيّ الذي أهمَلتَهُ

خمسَ سنوات عجاف...

إذن، لِيَكُنْ أن تتقدّم. لن تخسرَ شيئاً على أيّةِ حال.

تخطو خطوةً أولى، لتستعيدَ اللّحظات الأخيرة من المشهد. اللّحظات التي كنتَ تخشى مواجهتَها منذُ تهرّبْتَ منها، فأقمتَ بينك وبينها جداراً وهْمياً، ها هو ينهارُ عند أوّل هبّةِ ذكرى حقيقيّة.

اللّحظات التي تُقيمُ في الزّاويةِ البعيدةِ من ظلام المكان، والزّاويةِ القريبةِ من وهجِ الرُّوحِ وخفقاتِ القلب الأُولى، في انتظارِ من يُزيلُ الغُبار عنها...

كَمْ هي ذاكرتُكَ مزاجيّة.

إنّه وجهُ سلمى؛ يومضُ، يَخفُتُ، يدنو، ويقصو.

هلْ أنتَ جادٌّ في تَذَكُّرِها؟

هلْ بمَقدُورِكَ أنْ تسردَ ملامحَها بالتّفصيل؟

الشّقيّةُ، كنتَ تقولُ لها: "لو غبتِ عنّي ألف سنة، سأرسُمُكِ كما لو كُنتُ أراكِ".

هل تراها الآن حقّاً، أم أنّ الصُّورَةَ تحتاجُ إلى ترميم؟

هُنا كانَ لقاؤكُما الأوّل، وهُنا أيضاً كانَ لقاؤكُما الأخير، وبينهما توالَتْ

لقاءاتٌ وعناقاتٌ لَمْ يشهدْ عليها سوى الغروب وفيروز وجوقة السُّقْسُقات المنهمرة من بين أغصان الشّجر...

"سألْتُكَ حبيبي، لوَيْنْ رايحين"، كان هذا سؤالَها في صَمْتِها الدّائم. وكانَ جوابُكَ الذي تُصرُّ عليه: "يا مجنونة، لو أنّي أعرف أين نمضي، ما كُنتُ أخذتُكِ معي".

هل كنتَ صادقاً معها بما يكفي؟

لا تُراوِغْ. لِتَكُنْ واضِحاً، ولو مرّةً واحدة. ما الذي يُضيرُكَ من الصّراحة ما دامَتْ "سلمى" بعيدة.. أمْ تراكَ تخشى عتابَها القاسي، حتّى وهي مُجَلّلَة بالغياب؟

أيُّ حُضُورٍ طاغٍ لها الآن في غيابِها؛ حُضُورٌ لم تَكُنْ لَتحظى بِهِ وهي حاضِرَة!

حَواسُّكَ تخرجُ عن طَوْعِكَ، وتُعلنُ انْحيازَها إلى ما تبقّى من ألَقِ سلمى وعَبَقِها فيكَ. سلمى التي أغْرَيْتَها بجُنُونِكَ. وفي اللّحظة الحاسمة، تَرَكْتَها ورَحَلْتَ!

خطوةٌ أُخرى.

ها أنتَ تَذكُرُ جدائلها السّوداء، وعينيها المُرَصّعتين بالكُحْل. تَذكُرُهُ

فَمُها الشَّهِيُّ كالفُستُق، وشقاوتُها الطُّفوليَّة.

قالتْ لكَ: "سأذهَبُ مَعَكَ، حتّى إلى جهنّم".

قُلْتَ: "سأعودُ، فانتَظِريني".

كم كُنتَ تهجسُ بلُقمَةِ العَيْش. وها أنتَ الآن تُبعْثِـرُ النُّقـودَ دون رقيبٍ أو حسيب. فهلْ مَنَحَكَ كلُّ هذا "العِزُّ" ما خَسِرْتَهُ في "الحياة".

تخطو خطوةً ثالثة.

..كانتْ أكثرَ حِكْمَةً منكَ. رَجَتْكَ أنْ لا تُغـامِرَ وحْـدَكَ، أو لِتُغامِرَا معاً. المُهِمّ أنْ لا تتْرُكها "مَشْلوحَةْ عَ دْرُوب النّسيانْ".

ياه... ما أوجع دمْعَتها الحارّة تَنسَكبُ على كَفِّكَ فَتحْرِقها، ومـا أوجع الحياة التي ضَيَّعْتَها في خضمِّ البحثِ عنها.

أتذْكُرُ ذلك؟

حَسَناً. كنتَ جُزءاً منها، ولكن أيّة حصّة كانت لها فيك؟

ألَمْ تُلَمْلِم شظاياكَ كما لم تفعلْ امرأةٌ أُخرى؟

فلماذا تَرَكْتها مُشَظَّاةً، وكأنَّها لم تكُنْ يوماً حبيبَتكَ، ومضيتَ؟

"بَكْتُبْ اسْمَكْ يا حبيبي عالْحَوْر العَتيقْ

بِتكْتُبْ اسْمي يا حبيبي عَ رَمْلِ الطّريق".

لم تسألَهَا عن سِرِّ عشقِها لهذه الأغنية، لأنَّكَ لم تكُـــنْ تُـــدرِكُ أيَّ مستقبلٍ يَنتَظِرُكَ، وأيَّ فَقْدٍ سَيَحلُّ فيكَ وتَحلُّ فيه.

قالتْ لكَ بيقينيةِ المؤمن: "لن تعود".

قُلتَ: " أعِدُكِ".

وها أنْتَ تفعَلُها، وتعودُ. ولكن بعد ماذا؟

ستقولُ: "أن نجيءَ مُتأخّرين، أفضل من أن لا نجيءَ أبدًا".

ما جدوى ذلك، بعدما جَفَّتْ عروقُها، وتَيَبَّسَتْ عيناهـــا مـــن الانتظار.

خطوة رابعة.

ها أنْتَ تقتربُ من المقعدِ الحَجَريّ الذي اصطفيتماه معاً، لتـــهطل عليه أشواقُكما المُتدفِّقة. تتمنّى الآن لو تكون لَكَ ذاكرةٌ بيضاءُ خاليةٌ من الرّتوش، تُريحُكَ من غصّة التّفاصيل التي تُداهمُكَ غير آبهَةٍ بك.

"لنكتب أسماءَنا على الجدارِ كَرِمالِ الذّكرى، وليَكُنِ الجدارُ شاهداً على بَوْحِنا وحارساً لعشقِنا الأبديّ"، قالتْ بِخَجَل. لكنّكَ لَمْ تُعلِّـــقْ. بَدَوْتَ بليداً، وكأنَّ الأمرَ لا يعنيك.

كان في يدها مفتاحٌ، وكنتَ قرَّرتَ السّفَر. بدأتْ تـــنقشُ اسمَـــكَ

-حرفاً حرفاً- وتَرسُمُ قلباً جميلاً، ثمّ أخْبَرْتْكَ أن تَـنقشَ اسمَهـا علـى الطَّرَف الآخر.

كان حدسُها صادقاً في أنّكما لن تَلْتَقِيا مرّة أُخرى، إلاّ عبْـرَ هـذه النّقوش... كَمْ خَذَلْتَها يا أنتَ. كَمْ خَذَلْتَ نفسَكَ.

ينبَعِثُ ضوءٌ خافِتٌ من قنديلِ الذّكريات. يُباغِتُكَ. يرمي شَـبَاكَهُ ويصطادُكَ. لَمْ تكُنْ ضعيفاً إلى هذا الحدّ؛ الحدّ الذي تؤثِرُ فيه الانسحابَ على الهزيمة. وأيّةُ هزيمة؟ هزيمَتُكَ أمام نفسكَ.

مسكين. لم تحسبْها جيّداً، فانْفَلَتَتْ الخيوطُ جميعاً من بين يـديكَ. راهنتَ على أشياء كثيرة، وكَسِبْتَها، إلاّ هذه المرّة، خَسِرْتَ "سـلمى"، ولن تشفَعَ لكَ عودَتُكَ في الوقت الضّائع.

قُلْتَ: "لن أتغيّر". هلْ كُنْتَ كاذباً؟ هل كُنْتَ صادقاً؟ هل كُنـتَ تعي ما تقول؟

"خُذْني معكَ، سَنتقاسَمُ المُرَّ كما تقاسَمْنا الحُلْوَ"، استعطفتك، لكن قلبَكَ كان قد قُدَّ من حَجَر.

"ستَظلّين لي، أليسَ كذلك؟". كانت تنبَعِثُ من كلماتِـكَ بُـرودَةُ المواساة، لا دفءُ التّشجيع.

الآن ينجلي أمامكَ المشهدُ كاملاً -كم تبغُضُ الصُّوَرَ النّاقصَة-؛ لَوْحَـتْ لكَ وتَوَسُّلاتُها تَحفِرُ في أعماقِكَ كَسِكّين. لَمْ تُوَدّعْها كمـا يَليْـقُ بحبيبين

يَفْتَرِقان. سَرَتْ في خلاياكَ قشْعَريرَةٌ لم تكُنْ مُخْلِصاً لها بما يكفي، فَنَفَضْتَها عنكَ عندَ دَرَجِ الطّائرة...

لَوَّحَتْ لكَ بِكَفٍّ، وكَفُّها الأُخرى تَتَلَمَّسُ نَقْشَيْ اسْمَيْكُمَا على الجدار.

الجدار الذي تَقِفُ الآن في مواجهتِه بالضّبْط، يَتَحَدّاكَ ويكشِفُ عن اللّحظات التي تبحثُ عنها فيكَ. كَمْ تَرْغَبُ في مُعانَقَتِه. لو تَتَوَحّدُ فيه. لو تَشْتَمّ رائحَتَها الـ"تَعْبَق" فيه. أَلَمْ تُبارِكْهُ "سلمى" بأنْفاسِها وقُبلاتِها في زمن ما؟

تَقترِبُ منْهُ أكثر، باحِثاً عن اسْمَيْكُما، ولكنّكَ سرْعانَ ما تشتعل بالنحيب، إذْ ترى عشرات الأسماء قد نُقِشَتْ تحتهما حتّى أسْفَلِ الجدار.

١٩٩٥

٧٩

صلقوس

طلقوس

"ستكونُ قصةً مُدهِشَة؛ بَطَلٌ استثنائيٌّ يَحسدُني القُرّاءُ عليه أو يَحسدونَهُ عَلَيّ –لا فرق–، حوارٌ شيِّق، حبْكَةٌ مُحْكَمَة، وأحداثٌ تَتَشابَكُ وتَتصاعَدُ وَتيرَتُها إلى ما بعد الخاتمة".

هَزَّ رأسَهُ تعبيراً عن إعجابِه بِمَا تَفتَّقَ عنهُ خيالُهُ المُبدِعُ من أفكارٍ لقصَّتِه القادِمة، ثمَّ تَرَكَ مقعدَهُ المُثبَّت في إحدى زوايا الحديقة التي اعتادَ أَنْ يقضيَ فيها فترةَ قيلولَتِه للتأمُّل، قبلَ الشُّروعِ في الكتابة، وتَجوَّلَ بين أشجارِها المُزْهِرَة، مُنْتَشِياً بما ينبعثُ في أرجائِها من عطرٍ طازجِ الرّائحة.

"لن يكون بطلي ضعيفاً في وجهِ الحُبِّ هذه المرَّة، سيَقهَرُ العاطفةَ ولن تَهزِمَهُ امرأةٌ"، تَمتمَ وهو يرتقي الدَّرَجَ الملتوي في مسارٍ هندسيٍّ مُبتَكَر،

زَرْكَشَتْهُ قُضْبانٌ مُلَوَّنَةٌ تَحفُّهُ من الجانبين، نحو الغرفة الواسعة المنفصلَة عن البيت، والتي أُعِدَّتْ أيّما إعداد، لتكونَ عشّهُ الحميم عند الكتابة، بعد أن جَهَّزَها بما يُحَقِّقُ له القدرَ الأكبر من المتعة وراحة البال.

"يجب أن يكون بطلاً مُثقّفاً ناضجاً، جديراً بِتَميُّزِه النّابع من تميُّزي"، قالَ مُحَدِّثاً نفسهُ، لمّا اجتازَ بابَ الغرفة المُقوَّس باتّجاه المرآة التي وقــفَ أمامها طويلاً، فانشَغَلَتْ يداهُ بترتيبِ ياقَة قميصه الفــاخر، ثمّ امتــدّتا بالمشط إلى لحيَتِه الكثّة التي تُغَطِّي نصْفَ وجهِه، لِتَنْسيقِها، وارْتَفعتــا إلى شارِبَيْه الفاحِمَين الطّويلين اللّذين يُخْفيان مُعْظَمَ فَمه خَلْفهما، للتأكُّد من أن لا شَعْرَة تُغَرِّدُ خارجَ السِّرْب، صُعُوداً إلى شَعرِه المُنسَدِل على كَتفَيْــه حتّى مُنتصَفِ ظَهرِه، والذي يجعلُهُ شَبيهاً بِمعشَرِ الكُتّاب والفنّانين العظام الّذين يشاهِدُ صُوَرَهُمْ على شاشة التّلفاز وفي صفحات الجرائد.

مرّتْ دقائقُ قليلة، حَلَّقَ خلالَها في فضاءِ الغرفة، مُسْتَكْمِلاً في ذهنــه ملامحَ بطَلِه المُقْبِل، ثمّ اسْتلقى على الأريكةِ الوثيرةِ وغاصَ في طراوَتِهــا باسْتِرْخاءٍ مُصْطَنَع، وأغمضَ عَيْنَيْهِ هنيهات، قابِضاً على أطْــرافِ حُلــمٍ دافِء، لكِنَّهُ سرعان ما استفاقَ عندما فطنَ إلى أنّهُ أغفَلَ تحضيرَ القهــوة الضّرورية للكتابة.

اتّجهَ إلى المطبخِ الصّغير الذي ألحَقَهُ بِغُرفَتِه خصّيصاً لهــذه الغايــة، وصنَعَ قهوتَهُ التي تُذكِّرُ معارِفَهُ دائماً باختلافِهِ عنهم، لأنّها بلا سُــكَّر.

وأثناء ذلك، كان يَتلذّذُ باستنشاقِ رائحةِ البُنّ الذي ابتاعَهُ من أشهر المحامص في المدينة. وبعدما انتهى من العمليّة، صَبَّ القهوةَ في فنجانٍ زجاجيٍّ فخم، لا يُمكِنُ أن يَتخيّلَ أنّ الطّقوسَ المُصاحِبَةَ للكتابةِ ستكْتمِلُ دون وجودهِ البَهيّ على الطّاولة.

ارْتشفَ من الفنجانِ الرّشفةَ الأُولى مُبدياً سعادَتَهُ بتطوّرِ مهارتِه في إعدادِ القهوة، ثمّ وَضَعَهُ بالقُربِ من النافذةِ التي خطَا باتّجاهها على مهْل، وأشرَعها للمَدى، مُستعيداً قائمةَ الأسماءِ التي يعرِفُها، ليختارَ منها واحداً لبَطَلِ قصّتِهِ، لكنّه وقَعَ في حيرةٍ قادتهُ إلى أحضانِ الكُرسيّ الهزّازِ الذي يَتوسّطُ الغرفَةَ، وبمَزيدٍ من التّركيزِ واصَلَ بحثَهُ، دون أن يهتديَ إلى اسمٍ يُلبّي طموحاتِه، فَتذكّرَ "معجم الأسماء" الذي يُزيّنُ الرّفَّ العُلْويّ من مكتبتِه. قلّبَهُ مُستعرِضاً غرائبَ الأسماءِ وعجائبِها، إلاّ أنّ كُلَّ ذلك لم يُجْدِ نفعاً، فقرّرَ أنْ يُؤجّلَ موضوعَ الاسم حتّى الانتهاءِ من كتابةِ القصّة.

عادَ إلى قهوتِه، وحينئذٍ قدّرَ جماليّةَ انْبعاث الموسيقى في هذا الوقتِ بالذّات، حيث أشعّةُ الشّمسِ البرونزيّة عند الغروب تتسلّلُ من بين غلالات السّتائر، وتُعانقُ ضوءَ الغرفَةِ الخافت. إنّه وقتهُ المُفضّلُ للكتابة.

انتقى أسطوانةً لمقطوعةٍ عذْبةٍ معزوفَةٍ بإتقانٍ على البيانو. وَضَعَها في المُسجّلة. فانثالَت الألحانُ في تفاصيلِ المكانِ الذي بدا كما لو أنّه جزءٌ من عالَمِ ألفِ ليلةٍ وليلة.

"لا بُدَّ من الدُّخولِ في الحالةِ وتَلَبُّسِها قبلَ انْدلاعِ الكتابة، فالإبداعُ يحتاجُ إلى طقوسٍ وظروفٍ غيرِ عاديّة"، هَمَسَ قبلَ أنْ يجلِسَ إلى طاولته. وبتأنٍّ مُبالَغٍ فيه فَتَحَ أحَدَ الأدراجِ، وأخْرَجَ القَلَمَ الفاخِرَ الذي أهداهُ إليه مسؤولٌ كبيرٌ في مناسبةٍ ما يزالُ يذكُرُها ويُذَكِّرُ الآخرين فيها بكثيرٍ من الزهو، وخَطَّ به بعضَ الخربشات على الورق الأبيض المصقول، مُستمتعاً بانسيابِ الحبر فوقَ نُعومَةِ الورق المُغرِيَة بالكتابة، ومُستعِدّاً للّحظةِ الحاسمة؛ لحظة هبوط وحي الكلمات وانهمار الكتابة.

قَلَّبَ نظرَهُ في أرجاءِ الغرفة، شَعَرَ بالبهجة وهو يرى أنّ كُلَّ ما فيها يَحفزُهُ ليَبْدأ، لكنّهُ تَنبَّهَ إلى أنّهُ لم يُشعل "السّيجار" الذي لا يستطيعُ الكتابةَ دون أن يتابعَ بِشَغَفٍ دخانَهُ المُتصاعد بخطوطٍ مُتماوجَة حولَهُ.

ألقى نظرَتَهُ المُتَفَحِّصَةَ الأخيرة على المشهدِ برمَّتِه؛ كلُّ شيءٍ على ما يُرام: الإضاءة السّحريّة، الموسيقى العذبة، القهوة المُرَّة، "السّيجار" الفخم، القلم الفاخر، الورق الناعم، أشعة الغروب المُتسرِّبة إلى الغرفة كشلاّل، وأناقته التي أسرفَ فيها وكأنّهُ عاشِقٌ على موعدٍ مع حبيبته.

هَمَّ بكتابة كلمَتِهِ الأولى، لكنّ صَمْتاً مُفاجئاً خيَّمَ على المكان عندما توقّفتْ أسطوانةُ الموسيقى عن الدوران.

احْتَقَنَ وجْهُهُ بالغضبِ، وثارَ -مُنفعِلاً- في وجه الفراغ. رمى القلمَ جانباً وضربَ الطّاولةَ بعُنف، فانسكَبَت القهوةُ مُلوِّثَةً الورقَ الذي انقضَّ

عليهِ الكاتبُ الوسيم، ومَزّقَهُ بانتقام. وكَبَطَلٍ فيلم سينمائيٍّ مهزوم، خَرَجَ من غرفته إلى الحديقة، مُؤَجِّلاً الكتابةَ إلى أنْ تتهيّأ لهُ طقوسُها بكاملِها مرّةً أُخرى!

١٩٩٤